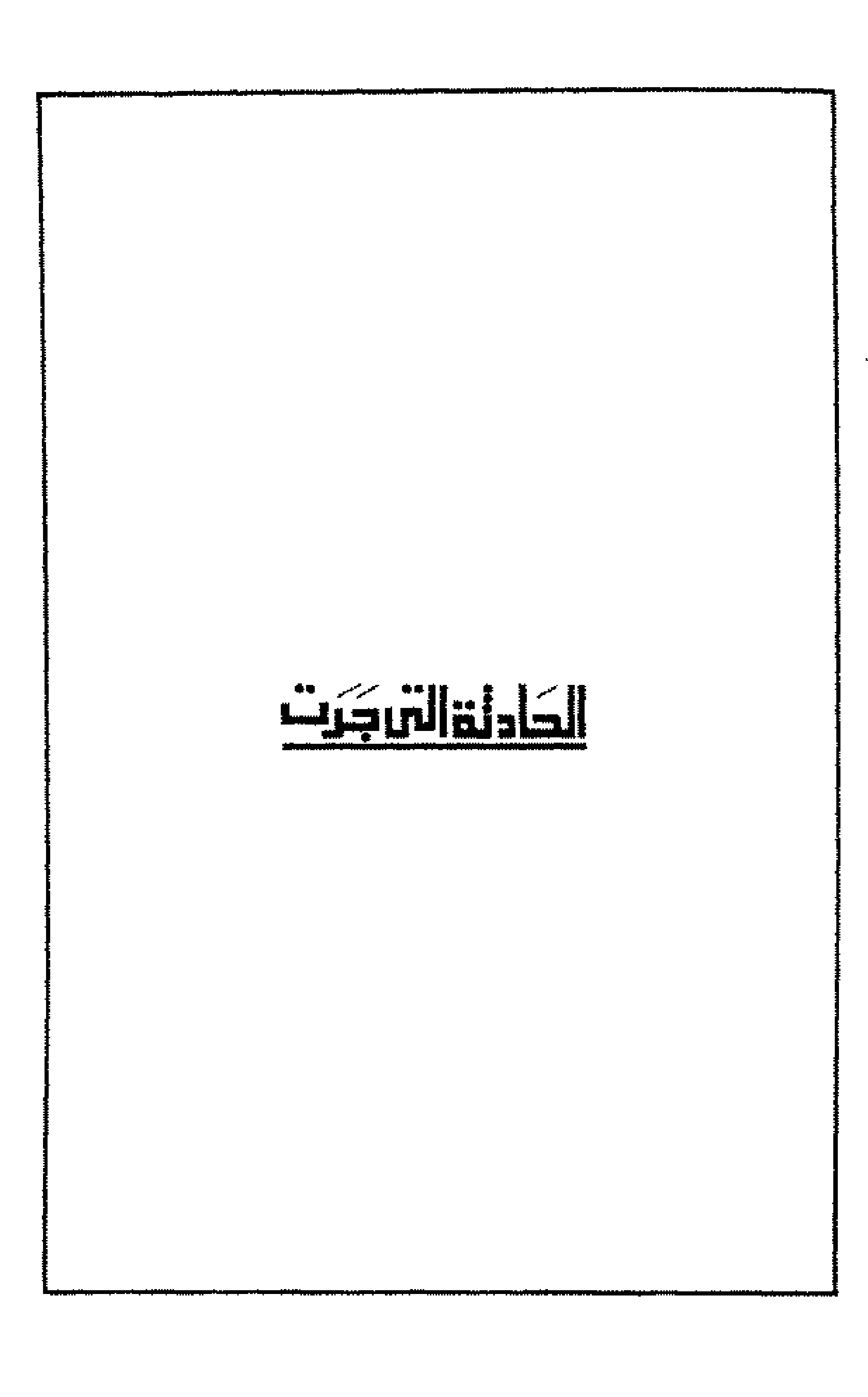
الحادثة التي جرت

قصص قصيرة

مجيد طوبيا


الحادثة التي جرت

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م

© دار الشروق
[illegible]
[illegible]
[illegible]


الحادثة التي جرت
قصص قصيرة
دار الشروق
مجيد طوبيا


الراية والبراءة

انطلقت صفارة الحكم، انتهى الشوط الأول من المباراة، وفريق مدرستنا منهزم بهدف إلى لا شيء... جمعنا المدرب في حنان أبوي، أشار إلى مئات الطلبة المتجمعين لتشجيعنا حاملين راية المدرسة، قال:

ـــ يجب أن تفوزوا، لا تخيبوا رجاء زملائكم فيكم، أنتم تلعبون على أرضكم..

أومأنا حماساً وهبطت عيناى من راية المدرسة إلى جموع التلاميذ، أبحث عن عيني «نادية» حبيبتي حتى وجدتها تلوح، فابتسمت وامتلأت حمية..

بدأ الشوط الثاني، انتقلت فيه الكرة بين أقدامنا معظم الوقت، من ركلة لأخرى، بسرعة وقوة في لعب حماسي انتهى بإحرازنا ثلاثة أهداف وانتصرنا، ولم يعد أمامنا سوى مباراتين نكسبهما ونفوز بالكأس..

بعد تحية الزملاء اتجهنا لأخذ الحمام نغسل العرق والغبار.

خلعنا ملابسنا وانهمرت المياه فوق أجسادنا منعشة، وتزاحمنا، كل لاعب يريد أن يأخذ نصيبه من الرذاذ البارد، صائحين صاخبين نشوانين بفرحة الفوز، نتبادل تعليقات المرح والنكات. نتحادث عن تلميذات مدرسة البنات.. نتخاطف الصابونة، نتناولها من فوق الحواجز الفاصلة بين دش وآخر.. كنا عراة مثل آدم ومع ذلك لم يغلق أحدنا بابه خجلاً من الآخرين..

ونحن نجفف المياه ونرتدي ثيابنا همس «فاروق غرباوي» بنذير الخبر لأول مرة قائلاً:

ـ عرفت من خالي المفتش أن ناظر مدرستنا قد تم نقله..

صحت:

ـ كيف ينقلونه وقد انتصف العام الدراسي؟

قال حسين حارس المرمى ممشطاً شعره في أسى:

ـ خسارة، رجل طيب.

قال فاروق غرباوي:

ـ على نقيض خلفه القادم تماماً. حدثني خالي أن الناظر المنتظر صارم وعنيف شديد القسوة.. وان شهرته بالوزارة تأديب المدارس المشاغبة.

زرر منير قميصه:

ـ لسنا مشاغبين.

أكمل فاروق غرباوي:

ـــ عنه واحد في أية مدرسة مشاغبة يؤدبها، ثم تنقله الـوزارة إلى مدرسة أخرى ليؤدبها وقد حان دورنا.

قلت في ثقة:

ـــ يؤدبنا من أجل ماذا؟.. ليأت وسوف نرى؟..

* * *

في الخارج كان في انتظارنا عشرات الطلبة السعداء وحامل رايتنا يعيدها إلى ساريتها ويرفعها خفاقة عالية.. وعن قرب لمحت حبيبتي نادية تتلكأ في المسير فانسللت خلفها.. سبقتني خارجة إلى شارع النيل وسرت في أثرها.. قبل ابتعادي التفت أتأمل مدرستي: كبيرة بمبناها فسيحة بملاعبها.. تقف شامخة مطلة على نيل الصعيد في اتساعه ترفرف رايتها طوال الوقت، تستقبل الشمس في شروقها وتودعها في غروبها، هفهافة مع نسيم الشمال.. وسوف نحتفظ لها بالكأس للعام الخامس على التوالي..

لحقت بنادية ملهوفاً لمحادثتها، لكنها ابتعدت خجلة.. انحرفت إلى شارع جانبي خال من المارة ثم تلكأت.. حاذيتها معاتباً.. اعتذرت كعادتها بخوفها من الناس.. قد يرانا من يعرف والدها ويخبره فتكون الطامة ويكون العقاب الوخيم.

قالت:

ـــ تعرف تقاليد الصعيد.

قلت:

ـــ لا نرتكب فعلاً مشيناً . . أحبك وأريد أن تعرف الدنيا كلها إنني أحبك . . ومستعد أن أواجه العالم كله بحبك . . .

احمر وجهها سعادة . وهنأتني بالفوز . . وسرنا وقتاً ، ثم افترقنا بعد أن تعاهدنا على الوفاء وعلى دوام المحبة مدى العمر . . .

* * *

بعد أسبوع تحققنا من صدق النبأ ، عندما وقف ناظرنا أمام مكبر الصوت يودعنا بكلمات حارة معرباً عن حبه لنا ولبلدتنا ، راجياً للجميع دوام التوفيق ، طالبا منا المحافظة على نتائج النجاح الممتازة التي حصلنا عليها طوال سنوات إدارته للمدرسة . .

على الفور سمعنا حكايات عجيبة عن الناظر القادم وصرامته . . سمعنا أنه لا يبتسم أبداً ، لا يعرف الرحمة أو الشفقة ، كحاكم عسكري قاسي القلب . . سمعنا أيضاً أنه غليظ الكف ضخم الكرش . . . قلت :

ـــ سوف نفرغ كرشه من انتفاخه .

قال فاروق غرباوي نقلاً عن خاله المفتش :

ـــ الناظر القادم عقابه الوحيد الذي يؤمن به هو فصل من لا يعجبه فصلاً نهائياً من كافة المدارس ، يعني ضياع المستقبل ضياعاً كاملاً ، والعياذ بالله !

ضحكنا سخرية.. رغم ارتفاع القهقهات شعرت بها جافة مرعوشة غير واثقة.

وعلى الفور تملكني انقباض مبهم عصر قلبي حزناً، ظل مسيطراً علي ولم يزايلني إلا عندما لاقيت نادية، حيث عاودتني البهجة من دفء صوتها الحاني، ومن اندفاعة الدماء إلى وجهي مع تلامس كفها بكفي.. وسرنا حتى بدت لنا اطلال الفراعنة القريبة، حيث هناك كباش الغجر وماعزهم ما أن تشبع من الكلأ حتى تأخذ تتناطح وتتقافز حول تمثال الفرعون العتيد...

* * *

مضى أسبوع آخر وسمعنا أن الناظر الموعود قد وصل بالفعل.. انتظرنا أن نراه، ومر اليوم كله، ومر يومان آخران من غير أن يلمحه أحدنا. ظل حبيس مكتبه، يأتي قبلنا وينصرف بعدنا.. حتى شككنا في صحة نبأ وصوله، لولا أن المدرسين أكدوا لنا وجوده.

وطوال هذه الأيام أطلق الطلبة شائعات غريبة عن أوصافه، زعم أمين أغبى تلاميذ فصلنا أنه رآه، ووصفه قائلاً:

ــ جسد طويل بكرش ضخم وقفا عريض.

لكن منير نقضه في ثقة:

ــ بل قزم سمين لا عنق له، بعينين جاحظتين.

وفي يوم التمرين وبعد أن تدربنا، وتوجهنا إلى الحمام ودخلنا

تحت المياه، أعلن حسين حارس المرمى بأنه رأى الناظر رؤية العين، صاح:

ـ هو باختصار شديد يشبه الغول!!

وعلى الفور راح كل واحد منا يتخيله حسبما كان يتخيل الغول في حكايات طفولته.

* * *

مع بداية أسبوعه الثاني، فوجئت مع عدد كبير من التلاميذ ببوابة المدرسة موصدة، أغلقت قبل بدء الدراسة بنصف ساعة ودون تنبيه سابق.. تسكعنا في الشوارع عدة ساعات قبل أن نتوجه الى بيوتنا... وحرصنا في اليوم التالي على التوجه مبكراً... بدافع الرغبة لرؤيته.. وربما بدافع الخوف من صيته.. أنا شخصياً كنت شغوفاً لمعرفة: «من أجل أية أفعال يريد تأديبنا.. وكيف سيفعل بنا ذلك؟».

دق الناقوس، فأغلقت البوابة الحديدية على الفور، وبدأنا نتوجه كعادتنا إلى الفصول لكننا فوجئنا بمدرسي الحصص الأولى.. يمنعوننا وبأيديهم ـ على غير العادة ـ عصي قصيرة، ويطلبون منا الوقوف في صفوف.. ولاحظنا وجود خطوط جيرية على الأرض لم تكن موجودة من قبل، خطان لكل فصل يقف تلاميذه بينهما!!.. قاومنا في البداية بسبب عدم التعود، وبرغبة دفينة في التمرد، لكن العصي في أيدي المدرسين اجبرتنا على الانصياع، فوقفنا كفرق

الجيش في صفوف منتظمة ووجوهنا جميعاً صوب الدرج المؤدي إلى غرفة الإدارة. . ومن هناك، من عند أعلى الدرج ظهر الناظر المخيف. . فساد صمت كامل وشامل رهبة وفضولاً. . وكان مظهره شتائاً مما سمعنا عنه، متوسط الطول ضخم البدن منتفخ البطن وبلا عنق، وبلا عصا في يده ووجه مستدير متجهم. .

لاحظنا أن وجوه المدرسين وعيونهم لا تفارقه في انتظار أوامره. . في لحظات كان توترهم قد انتقل إلينا فوقفنا مأخوذين وعيوننا أيضاً لا تفارق الوجه المتجهم الصامت. ولاحظت أن راية المدرسة منكسة عند أسفل السارية. .

فجأة وقع حادث خارق، على حين بغتة انطلق من الصفوف الخلفية نواح هزلي، ضاعف من سخرية الصمت الهائل الذي كنا فيه. . وعلى الفور ضجت المدرسة بضحكات صاخبة، ضحكات عصبية مبالغ فيها وتعرجت الصفوف وكادت تنفلت. .

بوغت الأساتذة لبرهة، ثم سرعان ما تولت عصيهم اسكاتنا واعادتنا إلى الانضباط مرة ثانية في الصفوف وإلى حالة الصمت المطبق. . فمكثنا شامتين نترقب رد فعل الوجه المتجهم. .

لم يخرج عن جموده، ظل في هدوئه المقيت، ثم همس في أذن وكيل المدرسة واستدار داخلاً غرفته. . ثوان وعرفنا مضمون همسته، إذ ظللنا في أماكننا، مذنبين طوال اليوم الدراسي. .

والمدرسون يتبادلون مراقبتنا في حزم وهمة إلى أن انصرفنا إلى بيوتنا مهدودي الحيل..

* * *

اليوم الثالث: وقفنا طوابير بطريقة أسرع، وخرج البدين الضخم بوجهه المتجهم، والراية منكسة مثل اليوم السابق، مما أدهشني: لماذا ينكسها وهي التي لم تنكس في يوم من الأيام..؟!

تنبهنا على وكيل المدرسة ينادي عدداً من الأسماء، خرج أصحابها مذعورين، ليصطفوا واحداً بعد الآخر تحت الراية المنكسة ، حتى وصل عددهم إلى عشرة.. وعندها سمعنا النبأ الصاعق، نبأ فصلهم من الدراسة فصلاً نهائياً وبلا رجعة.. ألجمتنا المفاجأة، وانكمش معظمنا واجمين.. ونحن نراهم يخرجون متباطئين في انكسار وعدم تصديق.. العجيب أن هؤلاء العشرة بالذات مسئولين بدرجة كبيرة عن صياح اليوم السابق، فكيف عرف الناظر الجديد.. لابد أن بيننا وشاة أبلغوه.. فمن يكونوا؟!

بعد إغلاق البوابة الحديدية من ورائهم أومأ الناظر إلى مدرس الألعاب بإيماءة خفيفة فإذا به ينتفض مصدراً صوتاً كصوت مدربي الجيش طالباً منا تحية الراية التي أخذ يرفعها أمام عيننا.. تابعتها بنظري وهي ترتفع وفي بطء: رأيتها متهدلة والهواء ساكن، لا ترفرف مثلما عودتنا!!.. شعرت بغصة تخنقني، وبدموع ساخنة تملأ عيني

شاهدت هذه الراية متموجة متآكلة الحواف. . وللتو أحسست بها غريبة عني!!

أثناء الحصص تشاورنا فيما يمكن أن نفعله لاعادة زملائنا المفصولين، لكن المدرسين أرهبونا ونصحونا بالصمت ـ ولاحظت أن معظمهم سعداء بهذا الرعب المباغت، خاصة غير الاكفاء منهم اذ كنا لا نحترمهم لعدم استفادتنا من حصصهم ـ ورغم ذلك حاولت حفنة من التلاميذ التدخل فكان نصيبهم الفصل النهائي أيضاً. . ودون نقاش ودون قبول أية وساطة ترحم!!

* * *

أخيراً استتب نظام الناظر، وتعودنا على الراية منكسة كل صباح وتعودنا على رفعها مع ظهور الوجه المتجهم، أصبح ارتفاعها قريناً لظهوره!! . . ويوماً بعد يوم بدأت أمقت هذه الراية وهي التي لعبنا مبارياتنا دائماً تحت لوائها وانتصرنا بها لكنها كانت رمزنا والآن صارت رمزه! . . ولهذا تجاهلنا أخذها معنا في المباريات التالية قبل النهائية! . .

في هذه المباراة ما ان نزلت إلى الملعب مع باقي الفريق حتى أصابتنا الدهشة، كان عدد المشجعين من زملائنا أقل منه في أي وقت مضى. . ومع ذلك بذلنا كل جهدنا كي ننتصر ثم بذلنا كل جهدنا كي نتعادل ومع قرب نهاية المباراة صار كل طموحنا ألا ننهزم. . وخرجنا متعادلين أمام فريق أقل من مستوانا بكثير. . .

وفي المباراة الأخيرة، مباراة الكأس، كنا جميعاً متوترين! . . قبلها جمعنا الناظر وأمرنا بالفوز وأمرنا بأخذ الراية معنا، وخرجنا من عنده صامتين منكسرين! . . ولهذا نزلنا الملعب خائفين، بأقل عدد من المشجعين والراية مرفوعة بلا حماس. . ولعبنا بلا حمية أكاد أقول أن زملاء لي تعمدوا الاهمال، أنا شخصياً أضعت هدفاً أكيداً، لا أدري كيف حدث هذا؟ . . لا أذكر ان كانت مصادفة أم تعمداً . . الذي أذكره جيداً أننا عندما توجهنا إلى أخذ الحمام ـ بعد هزيمتنا، وبعد ضياع الكأس منا لأول مرة منذ سنوات ـ كانت حركتنا بطيئة صامتة، وكان الحزن يصبغ نظراتنا ويلجم ألسنتنا، فانزوى كل لاعب مغلقاً بابه على نفسه، خالعاً ملابسه بعيداً عن أعين الزملاء، مقهوراً خجلاناً مزيلاً تحت رذاذ الدش آثار المباراة عن جسده.

ارتدينا ملابسنا دون اهتمام، وانصرفنا فرادى، وعندما خرجت أنا وجدت عن قرب «نادية» تتلكأ في المسير، سبقتني إلى الشارع على أمل أن ألحق بها كعادتي . . لكني لم أفعل.

هكذا تكلم أبو كبيـــر

الاسم مصطفى، وأصدقاؤه المقربون ينادونه: «درش».. أما زوجته فتدلله منادية «صافي».. بينما «أبو كبير» هو لقب الأسرة واسم القرية التي ولد بها..

كان وهو مراهق يظن أن متع الحياة ثلاث: مال وفير وزوجة محبة وبنون ظرفاء.. الزوجة حصل عليها منذ تسع سنوات، رقيقة أنيقة تتدثر أسرتها بالستر.. عندما أنجبت ابنته الأولى كان هو رقيق الحال يبحث عن الثراء، ويعمل مساعداً لرجل اسمه «محروس»، الذي كان وكيلاً لاحدى الشركات الأجنبية، يروج لسلعها مقابل عمولة مجزية، والذي وثق فيه وعامله مثل الابن، فتعود أن يوكله عنه بتفويض رسمي كلما سافر.. لكن مصطفى مع مجيء طفله الذكر الأول الذي فرح به كثيراً شعر بالمسئولية، وفكر في طريقة يضمن بها مستقبل أسرته المادي، فاستعمل كل ذكائه، وانتهز فرصة سفر رئيسه محروس واستغل التوكيل، وأوقعه في ملعوب بارع أطاح به، وحل مكانه لتصبح كل العمولة المجزية دخلاً خالصاً له، ولينمو رصيده في البنك بسرعة فائقة!

ثم أنجبت له زوجته للمرة الثالثة ابنة لطيفة لم يفرح بها، لكنها أكدت حصوله على المتعة الثالثة: البنون..

ورغم إيمانه العميق بأن السعد وعد. لم يصدق نفسه عندما قفز رصيده إلى ربع المليون، وركبته الهواجس، وأقلقته فكرة أن هذه الثروة كما جاءته سريعاً يمكن أن تضيع بغتة، وأنه من الممكن أن يقع فريسة ملعوب من منافس حاقد، فليس جميع البشر في نقاء سريرته!.. وتحول القلق إلى عسر في الهضم وحموضة في المعدة، وحرمان بأمر الطبيب من أطباق دسمة يحبها:

ـ احتوت حقيبتي على أكثر من دواء، وغزت الصفرة وجهي والهزال جسدي.. كانت وساوس شيطانية فظيعة سيطرت على عقلي وروحي!!

هكذا تحدث مصطفى أبو كبير مسترجعاً معاناة الماضي وعوارضها.. لكنه ـ وبما يشبه المعجزة ـ تخلص من كل هذه العوارض بفعل عادته الحميدة الجديدة التي أدمن تعاطيها كل ليلة، وبعد اطفاء نور غرفة النوم..

* * *

.. بعد اطفاء نور غرفة النوم، وقبل أن ينعس تماماً، تعود أن يضرع في سره، متوسلاً إلى الله أن يغمره بالرعاية ويديم عليه النعمة.. في الليالي الأولى كان ضميره يوقفه أكثر من مرة أثناء

الدعاء، ليؤنبه على بعض الذنوب التي ارتكبها في حق صاحب التوكيل السابق الذي اسمه محروس وبعض الآخرين!!.. ظل هذا يضايقه وينغص عليه دعواته، إلى أن هجر سريره ذات أمسية حارة رطبة، وخرج إلى الشرفة وجلس وحيداً، يتأمل السماء والنجوم ويفكر، ثم يتأمل مطاردة كلب الجيران للقطط الضالة ويمعن التفكير، ومع غموض الليل وعودة السكون إلى الشارع تمكن من العثور على سكينته، اكتشف أنه يقسو على نفسه دون مبرر، فكافة ذنوبه العابرة لم يرتكبها عمداً، وانما بفعل زحمة الأحداث، ومحروس قد شارف على الستين ولديه ثروة تكفيه بقية العمر.. وهكذا ـ وفي أقل من ربع ساعة ـ تصالح مع ضميره، ثم نهض هادىء البال إلى سريره.. ومن وقتها أدمن عادة الدعاء قبل النوم، دون منغصات تذكر من ضميره اليقظ أو خلافه!!.. كما تعود على مساعدة الفقراء والمحتاجين بكافة القروش المعدنية التي تثقل جيبه.. فاسترد شهيته وحمرة وجهه، وزاد وزنه بأكثر مما فقد..

لكن نسبة السكر في الدم لم تختف تماماً، وبقيت متذبذبة، ترتفع وتنخفض، مثل هواجسه التي عادت إلى الظهور في طور جديد، تحولت إلى خوف من الحسد، فراح ـ خزيا لعين الحسود ـ يشكو للناس من كساد السوق وغلاء المعيشة، ويظهر في ثياب عادية أو أقل متجنباً كافة مظاهر الثراء، مقاوماً رغبة زوجته في شراء سيارة!!..

غير أنه كان حسن الحظ بحيث تنبه قبل فوات الأوان إلى فساد هذه الخزعبلات، وذلك عندما رآه عميله الأنيق ذات يوم . .

* * *

. . عندما رآه عميله الأنيق واقفاً تحت شمس اغسطس، متلهفاً إلى مرور سيارة أجرة تعيده إلى البيت، عرض عليه توصيله . . وفي الطريق سأله عن سيارته وإن كانت عند الميكانيكي أو مع السيدة حرمه؟! وخجل أن يقول الحقيقة، واختار أن تكون مع السيدة حرمه!!

وفي خلوته الليلية راح كعادته يتأمل السماء والقمر ومطاردة كلب الجيران للقطط الجائعة، ويفكر جيداً فيما حدث، ليكتشف عبرة كأنها الحكمة:

ـ لن يكتمل مظهري إلا بسيارة فاخرة، واكتمال المظهر يوحي بالثقة، وهذا يفيدني في سوق المال، وقديماً قالوا: «أصلك فلوسك، وجنسك لبوسك» . . كيف فاتني هذا؟! . . ولماذا أنكر ما وهبني الله من مال ولا أحدث بنعمة ربي؟!

هكذا تكلم «درش» مع نفسه . . وفي الأيام التالية تمكن بفعل الأصدقاء والهدايا القيمة من استخراج رخصة القيادة، ثم تعلم القيادة، وبعدها اشترى السيارة المرتقبة . . ومن فوره علق حول مرآتها الأمامية مسبحة فضية وكف «خمسه وخميسه» منعاً للحسد،

ووضع ترب زجاجها الخلفي علبة من القطيفة الحمراء الفاخرة بداخلها كتاب الله، لحمايتها بمن فيها من شر الحاسد إذا حسد. .

وعندما ركنها لأول مرة أمام البيت ـ حيث شقته الجديدة الفسيحة ـ بقي الولد والبتان يرقبونها من الشرفة، وتلقت زوجته التهاني من الجيران، وزفت النبأ هاتفياً إلى الأهل والأحباب لاسعادهم واغاظة الغيورين منهم! . . وبعد الظهر تزينت وركبت إلى جواره، وتدافع الأولاد إلى المقعد الخلفي، وأخذهم في نزهة بشوارع القاهرة، وارضاء لرغباتهم راح يطلق منبه الصوت طوال الطريق، متوقعاً عدم انزعاج الناس، فالمفروض أن يفرحوا له. . .

وسرعان ما أدمن الشكوى من فوضى المرور والمارة، ومن قلة ذوق السائقين الآخرين! . . لكنه كان قد أدرك خطأ أفكار المراهقة، اذ أن متع الإنسان ليست ثلاثاً وانما أربعاً: المال الآمن والزوجة الحسناء والبنون الظرفاء والسيارة المتينة، وكان سعيداً فخوراً إلى أن بوغت بالحقيقة المؤسفة. .

* * *

أحس ذات مغرب بالظمأ، وكانت معه أسرته، توقف على بعد مترين من الرصيف أمام محل لعصير الفواكه، وراح يطلق منبه الصوت، وفي اللحظة التي تنبه فيها صبي المحل جاءت سيارة أخرى فارهة فاخرة، وإذا بالصبي ينحرف نحوها متجاهلاً اياه! ! . . اغتاظ

جداً ولم يفهم العلة لكن زوجته الذكية فهمت، لقد أعطى الصبي الأولوية للعربة الأفخم، لتوقعه من صاحبها «البقشيش» الأكبر!!

شعر بالغيرة، مجتراً الحكمة القائلة بأن العبرة بالمال وليست بالرجال!! . . ورمق السيارة المنافسة قرفاناً، فوجدها مغلقة الزجاج لتميزها بالهواء المكيف. . وللتو أدرك السر الخافي: ان سيارته ليست الأفخم، قد تكون أفخر عربات الشارع الذي يسكن به، لا يضارعها في الحي كله إلا واحدة، لكنها بالنسبة لسيارات العاصمة أكثر تواضعاً!! . . وكانت زوجته ـ والفضل ينسب لأصحابه ـ قد سبقته إلى ملاحظة ذلك، مما أذهله كثيراً وجعله يتأمل في أحوال الدنيا وعجائبها، اذ أن السيارة ذاتها سبق وان لفتت نظره إلى أن حرمه ليست الأجمل بين النساء.

ـ وبهذا تكون زوجتي قد ثأرت لنفسها من كيد العربة بها، ولكن دون أن تدري!!

هكذا حدث «صافي» نفسه، ثم شرد متذكراً كيف فعلت السيارة ذلك، وكان بعد شرائها بحوالي الشهر. .

* * *

. . بعد شرائها بحوالي الشهر كان عائداً ذات عصر مزدحم لا به ولا عليه، واذا بامرأة شابة تشير له، تخطاها بعدة أمتار غير مصدق، ثم توقف ناظراً إلى المرآة، فاذا بها تقترب متهادية وتفتح الباب

وتركب، ليشم عطرها المثير الممتزج برائحة عرق خفيفة!. . أراد الترحيب بها لكن صوته انحبس، فتحدثت هي بصوت عذب لذيذ ترجوه ألا يستاء من تطفلها عليه، ثم تأوهت شاكية من فوضى المرور ساعة الذروة، وراحت أناملها تلمس مسبحة المرآة .

عند أول اشارة حمراء انتهز الفرصة وتمعن في وجهها، فاذا بها: «ورب الخلق طازجة، غضة وبضة»!! فاستعاد صوته المحبوس ورحب بها، مؤكداً أنه وسيارته رهن اشارتها. . وكما يحدث في الأفلام تماماً صارت الراكبة عشيقته، سرعان ما تعودت عليه، وعندما دللته لأول مرة ونادته باسم «صفصف» غامت عيناه خلف سحابة حزينة مستوعباً كدأبه عظة الحياة:

ـ صدق من قال ان دوام الحال من المحال، وان الدنيا طاحون دائر، فزوجتي بعد الانجاب أهملت زينتها وقل جمالها، وان كانت ما زالت تبدو رشيقة أمام الناس بفضل الأقمشة والمشدات الحديثة، ولا تعدم بعض المراهقين يحملقون إلى صدرها الممتلىء بانجذاب كالاغماء!!

بهذا تحدث «صفصف» إلى نفسه وهو يضيف إلى سلسلته مفتاح الشقة المفروشة التي أسماها الجنة، اذ كان يشعر وهو فيها مع راكبته الشابة بأنه رجل مرغوب فيه، مما ضاعف من ثقته في نفسه، وانعكس على تجارته فزادت جسارته وتضاعفت أرباحه، فراح يغدق

عليها كثيراً ويهدي مراراً، إلى الحد الذي شعر فيه بالملل من كثرة ما اغدق وما أهدى!!

رغم هذا ظل عاقلاً واعياً، حريصاً على بيته وعلى ولده وابنتيه، فان كان الزبون دائماً على حق، فمن باب أولى الزوجة التي تمنحه الثياب المكوية والبيت النظيف والطعام الشهي.. خاصة وانها رصينة حكيمة، عندما لاحظت المفتاح الجديد بسلسلته تغاضت ولم تسأل عنه!!.. مما جعله يجاريها في الرصانة والحكمة ويغض عينيه عن هناتها الصغيرة، فهذا نفس ما يفعله مع راكبته، ما من مرة تخلفت فيها عن مواعيده إلا وتظاهر بتصديق أعذارها الركيكة، ثم صار يعفيها من ذكر هذه الأعذار، متغاضياً على مضض، شاعرا بالراحة أحياناً لتغيبها!!

لكنه لم يتكاسل ليلة واحدة عن عادة الحمد والشكر، كان يظن أن متع الحياة أربعة فاذا بها خمسة، والمتعة الخامسة هي الحبيبة الطازجة التي أسعدته دائماً، وخففت عنه وجعلته يتحمل زوجته كصديقة حميمة أنيقة وعصبية أحياناً، لولا حادثة صبي محل العصير التافه، التي أشعرته بالاهانة، وأفهمته بأنه لا يمتلك أفضل هذه المتع!!.. فان كانت سيارته ليست الأفخم، فمن المؤكد أن راكبته ليست الأروع، وان كان رصيده في البنك ربع مليون فالنصف أكبر، والواحد ضعف النصف!!

أكلت الغيرة قلبه، انه لا يحقد على مالكي ما فوق المائة مليون

ومضاعفاتها، فهؤلاء نجوم في سماء المال وليسوا من طينته، وقديماً قالوا وعظام الكبير في القبر تجرح وفي الحياة تذبح!».. أما أصحاب المليون الواحد فهم ليسوا بأذكى منه ولا أمهر!!

في نفس الأسبوع كان قد أعطى السيارة لزوجته الرصينة لاستعمالها الخاص، وركب هو سيارة أمريكية فاخرة..

* * *

وما ان اصطادت سيارته الفاخرة الراكبة الملائمة حتى تخلص من القديمة ومن مفتاح الشقة المفروشة، مستعيضاً عنها بأخرى مكيفة الهواء كالسيارة، أسماها الفردوس، عرف فيها فوائد التنويع ومضار الجمود، مما جعله يفكر ويخطط للاتجار بسلع أخرى إلى جوار سلعته الأصلية.. ولم لا؟؟.. ان الحياة مثل لعبة الدومينو، تبدأ بقطعة ترافقها قطعة ثانية، والثانية تلحقها ثالثة ملائمة ثم رابعة وهكذا، إلى أن تنتهي القطع كلها وتتم الدائرة وتنتهي اللعبة..

مع مرور الأعوام ودخول الأولاد المدارس، تغيرت مفاتيح السيارات، وتبدلت معها مفاتيح الشقق.. وظل على هذا المنوال إلى أن أدركته الحقيقة القديمة القائلة بأن الدنيا طاحون دائر وبأن دوام الحال من المحال.. وذلك عندما تنبه إلى نفسه وقد بدأ يضيق بالمواعيد والعطور والحيل المكشوفة، ويبرم من كثرة الهدايا والوعود.. الأمر الذي أصبح همه الشاغل!!

* * *

.. لكن همه الشاغل هذا صار هميِن عندما لاحظ أن ابنته الكبرى قد كبرت وأدمنت عادة القراءة وشراء الكتب، وهو يؤمن مع المرحومة والدته بأن الكتب في البيت تجذب الفئران والصراصير حتى في أرقى الأحياء، وبأن القراءة تجهد العين وتفسد الذكور فكيف الحال مع الاناث؟!

نصحها منذ ساعة فقط نصيحة الرجل المجرب المحنك، فاذا بها تتجاهل حكمته، بل وترد في برود زاعمة بأن الذي يميز الإنسان عن الحيوان هو القراءة!!.. الأمر الذي لم يسمع عنه من قبل، والذي رفع نسبة السكر في دمائه، وجعل الغرفة تدور به، فسارع بابتلاع الأقراص المهدئة، وانزوى جالساً بلا حراك في الركن المظلم من حجرته، حتى هدأت أعصابه، وعاد يفكر هارباً من هم الابنة إلى همه الأصلي: لماذا يمل ويسأم من الجنس اللطيف رغم انجذابه السابق اليهن؟!.. أهي التخمة. أم ارهاق العمل وصراعات السوق، أم داء السكر الذي يستفحل سريانه في الدم؟!.. أم الخوف على ابنته حديثة المراهقة؟!.. وهل أصحابه يمرون بنفس ما يعاني منه؟!.. لعله التقدم في السن وضعف الحيوية؟!

بقي جامداً في ركنه المظلم، حزيناً مهدود الحيل، إلى أن جاءه الالهام: قرر أن يزوج ابنته بمجرد بلوغها السن القانونية، وبهذا تصبح مسئولية رجل آخر، ويتخلص نهائياً من همها، على أن يجهز لها حفلة عرس رائعة ويساعدها بالمال من غير شح..

ارتاح كثيراً لهذا الحل، فأشرق وجهه وأطلت الفرحة من عينيه.. لكنه عاد وتجهم، وانحنى ظهره من جديد، هناك احتمال بأن تتمرد البنت وترفض فالقراءة تعلم الخبث!!.. ماذا يكون الحال وقتها؟!

احتار وتبلبل وعجز عن التفكير المنظم، وأحس بالاختناق وبالرغبة في هواء متجدد، فنهض يرتدي ملابس الخروج، ثم قاد سيارته، هائماً دون هدف معين، في طرقات الحي الهادئة الساكتة يفكر ولا يجد حلاً!!.. إلى أن فوجىء بشارع مزدحم على غير العادة!!.. تعجب ثم سرعان ما اكتشف أنه قريب من مسجد الحي، واذا بعينيه تدمعان حبوراً، وبالاشراقة تعود إلى وجهه، وبالأمل يدخل إلى نفسه.. فانحرف على الفور.. مقرراً الصلاة..

وجد عربات المصلين تكاد تسد الطريق، ففشل في العثور على مكان يركن فيه!!.. تضايق في البداية وتضاعفت عصبيته واندفع يتساءل ساخراً عن نوعيات المفاتيح في سلسلة صاحب كل سيارة؟!.. ثم عاد وكبح غضبته وحمد الله على البحبوحة التي ينعمون فيها..

ركن سيارته بعيداً، وأمسك بالمسبحة الفضية، وتعطف بالاحسان على أحد الشحاذين، ثم خلع حذاءه ودخل..

عند انصرافه كان هادىء النفس قرير البال، وقد اكتشف كم كان مخطئاً في احصائه لنعم الله على الانسان:

ـ فعددها ستة وليست خمسة، ثروة، زوجة، بنون، سيارة، حبيبة هادئة متحدثة وضمير مرتاح . .

هكذا حدث مصطفى او درش أو صافي أو صفصف أبو كبير نفسه، خاتماً حديثه قائلاً:

ـ وأحمد ربي وأشكر فضله على ما أنعم، وأخص بالذكر، أخص بالذكر راحة الضمير.

شدت البلابل، دُهِشتُ: أتوجد بلابل في هذا الحي؟!.. طار النوم من عيني، وتغريد الطيور زائد المرح!.. نظرت إلى شيش الشرفة، الصباح يملأ الخارج وشرائط من نوره تفرش الغرفة، اندفعت أطل عبر الشيش: هل عاد؟!.. نظرت صوب حديقة الجانب الآخر، انبهرت: يبدو أنه قد عاد!!.. فتحت باب الشرفة عن آخره، الهواء عبق رغم عوادم السيارات، والأشجار مخضرة والزهور زاهية في ألوان متقاربة متدرجة متباينة، من الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر، وجميع هذا أبدعته الطبيعة في ليلة واحدة!!.. فرحت بالتنوع: أخيراً عاد من بعد انقطاع سنوات مريرة!.. شعرت بصفاء عجيب وتهيأت للحب فقررت التأنق..

منذ سنوات:

منذ سنوات كنت الوحيد من مجموعة الصحاب الذي تنبه إلى اختفائه، لاحظت أن العام قد انتهى من غير أن يأتي فصل الربيع، قلت لهم ذلك فلم يأبهوا وذهب بعضهم للوقوف في طابور

الغذاء!.. ثم جاء العام التالي وانقضى مشوهاً مثل سابقه، بثلاثة فصول فقط، صيف حار طويل وخريف خماسيني وشتاء قارس!.. نبهتهم إلى هذه الظاهرة فضحكوا مني ثم تحدثوا عن بعض طوابير الكساء!.. فلما ولد العام الثالث ورحل بعد اثنتي عشر شهراً تاركاً الحدائق جرداء من غير لمسة الربيع لم أطق تجاهلهم وأتهمتهم بالبلادة، فإذا بصاحبي الصحفي ينصحني بأن أنشر رسالة في باب «خرج ولم يعد» أقول فيه: «خرج الربيع منذ أعوام واختفى في ظروف غامضة ومن يجده يتصل بي على عنواني أمام كلية الطب وله مكافأة سخية!».. لم أستسغ كلامه لكنهم ضحكوا طويلاً!!.. وأشار صديقي ضابط الشرطة إلى مبنى القسم القريب قائلاً:

ـ إذهب وقدم بلاغاً كي يساعدوك في البحث عنه. وإذا سألوك إن كنت تشك في أشخاص بعينهم قل إنك تتهم الخريف والصيف والشتاء لسطوهم على أيام الربيع!!

تحملتهم بعض الوقت ثم أخذت أجلس بعيداً عنهم معظم الأمسيات، ولعلهم ارتاحوا لهذا، وكنت أسمعهم يتكلمون في شتى المواضيع، لكنهم أبداً لم يشتكوا من اختفاء الخضرة والزهور أو يتبرموا من الغبار الذي يهب علينا من الطريق مع مرور كل سيارة ولا من العطن الفائح من مطعم الفول القريب!!

ومضت الشهور رتيبة كئيبة حتى كاد ذهني أن يتشتت بين الركود والتناوم، وحتى صرت بطيء الحركة ثقيل الكلام، أتثاءب بالمساء

منزوياً وحيداً على المقهى المزدحم ثم أنهض سقيماً إلى البيت تتلجلج خطواتي بين تنافرين: رفض الخارج وخواء المسكن!.. أحاول شغل وقتي بالقراءة حتى أملها، فيسيطر عليّ سلوك عصابي يدفعني إلى الانغماس ولوقت طويل في نفض غبار الطريق عن أثاث الشقة أو تلميع بندقية المرحوم والدي!!.. وفي الصباح وقبل ذهابي إلى العمل اعبر الطريق إلى أطلال الحديقة، أتأمل الفروع والغصون علني أجد تباشير الخضرة فلا أجد غير اليباب، أرى طالبات الطب فأمتحن نفسي وأضع عيني في عيونهن من غير أن اشعر بأقل تغير في النبض أو الأحاسيس حتى خشيت التبلد!!.. وعندما أعربت عن مخاوفي هذه في المقهى تكلم صاحبي المدرس قائلاً:

ـــ لعل أحد تجار السوق السوداء خبأ الربيع في ثلاجة كبيرة كي يبيعه في عبوات خارج التسعيرة وبثمن مرتفع!

ثم أخذ نفساً طويلاً من سيجارته سعل بعده بشدة ولعله كان يضحك!!

غير أنني:

غير أنني ومنذ يومين فقط رأيت إحداهن، وخيل لي أنني جاهز لحبها وأنها ستبادلني ذات الشعور، فتقدمت منها مبتسماً بقصد التعرف، غارقاً في عينيها الواسعتين ولونها الخمري، ارتبكت بسرعة بابتسامة شاحبة سرعان ما أزالتها وأطرقت تبتعد عبر أطلال الحديقة إلى موقف الأتوبيس، فعزيت نفسي قائلاً: لعلها تتبدل إن جاء الربيع

وتفتحت الزهور. لكني شممت رائحة مشرحة المستشفى فتملكتني الكآبة!!.. وفي المساء عندما لاحظ صاحبنا موظف البنك أنني لا استظرف نكاتهم قال في جدية مصطنعة:

ــ لا تحزن، سنكتتب لإقامة سرادق تتقبل فيه العزاء في الفقيد الغالي!

ثم استدار يلعب الشطرنج لينهزم كعادته كل مساء!

تهيأت للحب:

تهيأت للحب فقررت التأنق يدفعني يقين غامض بأنني على موعد بين الخمايل، ووقفت أمام المرآة أحلق ذقني، وإذا بوجهي متورد من بعد شحوب، ونظراتي متأججة من بعد ركود، ففكرت متعشاً فى هذا الفصل الفوّاح الذى ترق فيه الأحاسيس وتتسع الابتسامات وتشف العيون عن أعذب ما في القلوب!!

تأنقت وهبطت إلى عتبة البيت، تجاهلت الأغاني السخيفة في المحلات المجاورة والدق والخبط، ورأيت المارة مكدودين رغم أننا في أول النهار سائرين كدأبهم اليومي من غير لفتة واحدة لتعدد الألوان الذي جدا.. جاهدت في عبور الطريق، زكمت عوادم السيارات أنفي، أهاجت الدمع في عيني!.. نجحت في الوصول إلى أرض الخضرة والطيور المغردة، استرخت أعصابي وهمت بين الشجيرات أملأ صدري بهواء الفل والياسمين، وأفلحت في تناسي

زعيق المحركات ومنبهات الصوت والأغاني والدق والخبط وأصوات أخرى مبهمة قادمة من اتجاه ما!!

بين الخميلة كانت جالسة في ثوب منقوش وشعر متهدل بلونها الخمري وعينيها الواسعتين، وبجوارها حقيبتها وثوبها الطبي، راقبتها من بين الأفرع وتيقنت أنها تنتظر، تشجعت وظهرت لها فتهلل وجهها، وسرعان ما كان الالتئام كأننا صاحبان من زمان، وفي عذوبة النظرة تأكد الود وفي لهفة اللمسة تواصل.. ثم راحت تتهادى من وردة لأخرى تستنشق الأريج مع الفراشات، تتناغم ضحكاتها مع البلابل، والمحبون يفدون تباعاً، والطيور تحيينا بتغريد خاص.. بينما الأصوات المبهمة تقترب وتبدو مثل دبيب صارم الرتابة!!.. لكننا واصلنا سيرنا بجوار المجرى الرفيع وراقتنا مياهه اللألاءة، وقلنا هذا جدولنا الذي يروي أشجارنا التي تثمر ورودنا.. وشعرت بجسدي عفياً وذهني متفتحاً، فراودتني أفكار بديعة ومشاريع جديدة قررت أن أشركها فيها، فوجدتها تستدير عند شجيرة الفل وتوشوش لي برغبتها في أن نبتكر معاً شيئاً فريداً، ثم بدت وكأنها ستبوح بحبها، ورأيت فمها يتحرك لكني لم أسمعها، كان الدبيب الصارم قد دنا وصار يرج الطريق!

وسمعت صكة:

سمعت صكة مفزعة، ورأيت آلة ضخمة تقف إلى جوار الرصيف تطل بعشرات العيون الجاحظة، تصطك وكأنها تتفكك!!..

بالفعل تفككت إلى عدة كائنات عجيبة، الكائن منها يشبه الإنسان بعينين جاحظتين ومقص طويل في يديه. تقدم أولهم. فتح حدى المقص ثم تصيد شجيرة وبترها بجميع غصونها وياسمينها!!.. توترت أعصابي!.. سرعان ما لحقه الثاني والثالث، تدافعوا بالعشرات جاحظين، شاهرين مقصاتهم مسنونة الحواف، هجموا على الورود والشجيرات، بتروها في انضباط وحنكة!.. دوت صكات البتر، صرخت حبيبتي لائذة بي، فزعت الطيور إلى أعمدة الإنارة، تشتت الفراشات، الصكات، كادوا أن يدهسوني في تقدمهم، صرخت معترضاً، وجوههم فارغة من كل انفعال، الصكات، ترنحت الحبيبة، سارعت أساندها، ساد الصمت بغتة!!.. جزرت جميع الحديقة عدا شجيرة الفل حيث كنا، اقترب أكثرهم جحوظاً، كأنه ينظر إلى جميع الجهات، تجاسرت محاولاً منعه، حوّل مقصه نحو عنقي، كاد يقطف رأسي، تقدم فتقهقرت، تمنيت لو بيدي بندقية والدي، تعثرت حبيبتي هاربة، أعاقني الدوار من اللحاق بها، ابتعدت، اندفعت الفراشات في قوس طويل هابط، انتحرت غرقاً في الجدول الصغير، احتججت بصوت غاضب، دوت الصكة الأخيرة، حط الصمت النهائي!!.. ما فائدة الاحتجاج وقد نفذوا عدوانهم؟!.. انضبطوا في صفوف مستقيمة، خبطوا الأرض بأحذيتهم الثقيلة، استداروا نحو الطريق، دقت كعوبهم أسفلت الطريق، تجمعوا، تكتلوا، عادوا كما جاءوا آلة ضخمة تطل بعشرات

العيون الجاحظة، مضت تبتعد بدبيبها الصارم، التفت إليها المارة في فضول ثم تابعوا سيرهم اليومي!!

والشمس حارقة:

والشمس حارقة ولا ظل ولا خمائل، وسمعت نواح إمرأة، وبدلاً من عبق الورود إمتلأ الجو برائحة عفن مختلطة بمواد طبية، والهواء يهب من عند المشرحة ثم ركد تماماً وصار لزجاً خانق الرطوبة، والمرأة النائحة أمام المشرحة، لعل قريباً لها قد مات ولعله بالداخل في انتظار وثيقة الدفن!.. فكرت أن أذهب إلى مجموعة المقهى وأخبرهم بما حدث لكني توقعت أن يسخروا مني، ولعلهم ما زالوا يشكون الأسعار والمجاري وعذاب المواصلات وتلوث المياه، فإن جلس عن قربهم شخص غريب بتروا شكاويهم ريبة وانهمكوا في لعب الدومينو!!

انسحبت إلى غرفتي وأغلقت الشيش والزجاج وجلست منكس الرأس، مددت يدي أفتح المذياع وعندما بدأ يتكلم أخرسته، لماذا يجردون المكان من الأشجار؟!.. طوال الليل لم أنم، وان غفوت فجحوظ العيون يفزعني لأجد الظلام ما زال يحيطني، طاردني كابوس متقطع، حلمت بالأشجار وقد كسيت جميعها بزهور سوداء اللون!!.. تساءلت إن كانت توجد مثل هذه الزهور في أي مكان من العالم؟!.. لم أعرف الاجابة يقيناً، لكن ما دامت توجد زهور بيضاء فمن المؤكد أن السوداء موجودة!!.. ثم سرعان ما عرفت الاجابة

عندما استيقظت على صوت عويل مرتفع، الجو قائظ، ولم أكن على ثقة أنني نمت، ربما غفوت عند الفجر، تمنيت أن يكون ما حدث كابوساً، سارعت إلى الشرفة، رأيت مجموعة من النسوة في سواد كامل، متربعات مولولات في دائرة من حول نادبة، رأيتهن مثل زهرة كبيرة نائحة سوداء، وقد يبست من حولهن الزهور المبتورة والأوراق، والهواء اللافح يدفعها فوق الثرى، ورغم البعد سمعت خشخشة جفافها فاقشعر بدني!! . . بالفعل توجد زهور سوداء، ان لم تكن في الطبيعة فهي في داخل معظم الناس وبشكل ما، في داخلي أنا على الأخص!! . .

ابتلت عيناي بالدموع فتموجت زهرة النائحات برحيق أساها، خمنت أن وثيقة الدفن لم تصدر بعد، وهاجمني الدوار: إن الأسود لون مفترس يبتلع ألوان الصيف السبعة ولا يعكسها فلا نراها حيثما يوجد، وهذا نذير شر لأن ألوان الطيف تظهر عند المطر الشديد في قوس قزح، وقوس قزح علامة أمان ان طوفان النهاية لم يحن بعد!

تنبهت على ضجيج آخر من الطريق، وكانت الآلة التي تطل بعشرات العيون الجاحظة، سرعان ما اصطكت وتفككت ونزل منها الجاحظون، طردوا النسوة في قسوة، ثم انهمكوا في كنس الأوراق والفروع الجافة وردم الجدول بما فيه من فراشات ميتة، ثم راحوا ينزلون من العربات مقاعد كثيرة رصوها في صفوف متوازية، أقاموا أمامها منصة خطابة، فرشوا المنصة بسجادة كبيرة مهترئة، وضعوا من

فوقها ترابيزة ومكبرات صوت، ثم تجمعوا من جديد، تلاصقوا، عادوا كما كلنوا آلة ضخمة لها عشرات العيون الجاحظة ثم مضت!!

دخلت، حاولت القراءة ففشلت، انتابتني الحالة العصبية فتشاغلت بنفض الغبار عن أثاث البيت، ثم انهمكت تماماً في تنظيف بندقية أبي..

وبعد الغروب:

وبعد الغروب امتلأت المقاعد بالجالسين المتصنمين دون تململ تحت الأضواء الباهرة، وفوق المنصة وقف خطيب ينطق عبر مكبرات الصوت بعبارات منمقة وكاميرات التليفزيون تصوره، وكان يتكلم عن طريق وردي يؤدي إلى مستقبل كله زهور ورياحين!!.. ورغم أنهم كانوا قد علقوا من خلفه لافتات كبيرة أخفت بناية المشرحة تماماً إلا أنني كنت على يقين من أنها لا تخفي رائحتها!!..

كرهت كل هذا فدخلت شقتي، سرت حانقاً من غرفة لأخرى، ثم رأيت بندقية المرحوم أبي، فكرت في تنظيفها من جديد، لكن سؤال مفاجىء خطر لي: هل ترك معها بعض الطلقات الصالحة؟!.. وبحثاً عن الإجابة قمت أفتش في صندوقه القديم المغلق.

فلما كان بعد ساعة أو أكثر سمع والده يرحب به ربما للمرة العشرين، ونهضت أمه تعد العشاء في نشاط المحبين، وأخته فخورة به وابنها ياسر لصيق به ويرمقه مستريباً، أول مرة يراه! .. والرائحة مزيج من بخار الشاي والطبيخ والخبيز وهواء الخارج والسباخ، وجميع هذا افتقده طيلة غيبته في بلاد الانجليز، فلما نال الدكتوراه في علم النفس فاجأهم بالعودة، وبمجرد أن جلس بينهم زال تعب السفر واسترخى جميع بدنه.. وسأله والده عن رحلته فقال:

ـ سهلة في الطائرة

ـ ومن القاهرة؟؟

ـ مسروق من كل مخلوق،وكأن الناس في عصيان من غير إعلان !!

ـ عجيب ما تقول!! .. وضح أيها العائد

ـ أمرك أيها الوالد

○ حكايته مع السائق البدين:

بعد مغادرته المطار بحوالي الساعة وجد التاكسي يبطىء ثم يزحف محشوراً بين عربات من كل نوع وحجم، ينحرف سائقوها من اليمين إلى اليسار أو العكس، ويتبادلون السباب أو منبهات الصوت. . دخان وضجيج واحتكاكات، وكأن حرباً أهلية تجتاح وسط المدينة، فانزعج بشدة، وشعر بالشمس حارقة رغم انحرافها للمغيب، ولاحظ اختفاء الأشجار والنسمات، والحركة ثوان والتوقف دقائق، فاستجار بالصبر، ونفد الصبر، فاستسلم لليأس، وغابت الشمس وبقي الجو ساخناً، وحط عليه الكسل، فظل يتثاءب في بلادة، حتى وصل إلى موقف تاكسيات الوجه البحري، ونزل إلى أرض العباد، وسأل في سذاجة عن قراءة العداد، فأكد السائق بأنه موجود ولكنه عطلان، وبعد فصال ونضال، وترحيب معاد في باطنه وعيد وضلال، دفع أجرة تعادل سبعة أضعاف التوصيلة!!

وهذا ما كان من أمر تاكسي القاهرة معه!!

أما عربة الأرياف العتيقة، فقد اندفعت خارج القاهرة العريقة، غير هيّابة بظلام الليل المريع، تزمجر على الطريق السريع، بأنوار لا تكشف أبعد من المترين، وسائقها البدين وبعزيمة لا تلين، لا يترك مطباً إلا ونزل فيه. . وبعد شوط من الطريق تحدث مع راكبه الأنيق:

ـــ نحن لا نطيل الوقوف في بلدتكم مهما كان الأجر!!

ـ لكنها بلدة آمنة!

ـ أعرف، وناسها أكرم ناس

ـ فهل تخشى منهم على سيارتك؟؟

ـ ليس منهم، ولكن منها!!

ـ منهـا!! . . من هي؟؟ . . جنيـة أم العفـريتـة ذات القـدم المسلوخ؟!

لم يضحك السائق البدين وقال في يقين:

ـ واضح أن غربتك طالت لعدد من السنين!!

ثم أقفل فمه ولم يفتحه إلا للتثاؤب، وانحرف الى طريق يمين ومنه إلى تفريعة يسار، وبعد طلوع ونزول وعدة التواءات وصل إلى البلدة المقصودة، وأخذ ثلاثة أضعاف الأجرة المعهودة، ثم هرول مغادراً أرض البلدة!!

وهذا مجمل السلوك الغريب الذي كان من سائق الأرياف العجيب!!

فابتسم الأب بمرارة، وجاءت الأم تعلن أن العشاء جاهز، فأكل الدكتور طعاماً افتقد نكهته أربعة أعوام متصلة، ثم سأل عن سر انصراف السائق مثل الهارب، فقال الأب:

ـ لهذا سبب، ولكن اشرب الشاي أولاً . .

وبينما هو يستمتع بنكهة النعناع لاحظ أن ياسر يرمقه في عداء

مبين لأنه سرق منه اهتمام الآخرين، فنهض على الفور وفتح الحقيبة وأخرج علبة جميلة وهو يقول:

ـ لك عندي هدية يا ياسر

وبسرعة فك الرباط البراق وأخرج دمية صغيرة حرص على أن يداريها بكفه، وضغط على زرار تشغيلها خفية، ثم وضعها على الأرض فتحركت، وبدت مثل الفأر الحقيقي تماماً، وإذا بالولد يخلع فردة حذائه الصغير ويندفع يهاجمها ضرباً.. ضحك الدكتور ثم سرعان ما وجم وهو يرى أخته وأباه يشاركان الولد في حصار الفأر، فسارع بالتقاطه، وعندما علموا أنها دمية وأنها هديته للولد الصغير نظروا إليه وكأنه غرير.. وسأله الوالد مستنكراً:

ـ لماذا هذه بالذات من بين جميع الدميات؟!

○ حكايته مع فأر المطار:

منذ شهرين وكان يستعد لمناقشة رسالته عن «الجريمة والجنس» انتهز فرصة التخفيضات ونزل لندن يشتري هدايا عودته، لأمه وأخته وزوجها ولباقي الأحباب، واشترى لوالده ـ وطبقاً لرغبته ـ حبوباً مقوية للجنس.. لكنه عندما غادر الطائرة إلى صالة السوق الحرة بمطار القاهرة، شاهد أكثر من دمية بديعة على هيئة طفلة وديعة، فتذكر على الفور أن أخته رزقت في غيابه بولد أسمته ياسر نسي أن يشتري له هدية، ولو كان بنتاً لابتاع لها إحدى هذه العرائس.. وبينما هو في

حيرته إذ به يكتشف وجود فأر كامن بين السلع المعروضة!! . . استاء ولفت نظر البائعة حرصاً على سمعة البلاد، لكنها ابتسمت في شطارة وامسكت الفأر بكل جسارة، ووضعته أمامه ليكتشف أنه دمية دقيقة الصنع، فضحك وابتاعها بالعملة الصعبة متخيلاً فرحة ابن أخته عندما يشغلها أمام القطة فتنخدع بها وتحاول قنصها لتجد المفاجأة ويضحكون جميعاً!!

وهذا جميع ما كان من شأن الفأر الذي اشتراه من السوق الحرة!!

تعجب الوالد من ابنه المتعلم الذي يشتري فأراً بالعملة الصعبة!! . . وليداري الدكتور خجله سارع باعطاء أمه هديتها ثم أخته وزوجها، وفي زحمة انشغالهم أعطى أباه الحبوب المقوية، فدسها في جيبه اليمين من غير أن يلحظ أحد الحاضرين. . وضحك الدكتور، ثم فوجىء بياسر يخلع فردة حذائه من جديد ويندفع إلى الركن البعيد، مهاجماً هذه المرة فأراً حقيقياً!! . . وشاركته الأسرة جميعها، ورغم قولة الاسلاف بأن الكثرة تغلب الشجاعة إلاّ أن الفأر تمكن من النجاة في براعة!! . . فانسحبوا جميعاً إلى أماكنهم خائبي الهمة. . وبعد أن خف اللهث واستردوا هدوء النفس، تنحنح زوج الأخت وقال:

ــ من الواجب أن أحكي لك ما وقع منذ ثلاث سنوات أي بعد سفرك بحوالي الحول. .

○ سيرة عبد ربه مع بلدياته عبد المولى:

كانت أعواد الذرة قصيرة وهي بعد رخصة طرية، عندما خرج عبد ربه إلى غيطه ذات فجرية، فإذا به يجد عدداً من عيدان زراعته وقد انكسرت بفعل فاعل!!.. ولما كان على خلاف قديم مع عبد المولى فقد اتهمه بالفعلة، وجاهر بذلك أمام الجميع، ثم سارع يستدعي بعض أقاربه من القرى المجاورة يستقوى بهم.. وحاول عبد المولى اقناعه ببراءته من غير جدوى، فبات مغلوباً على أمره، ونام وأصبح وعندما ذهب إلى غيطه وجد عدداً كبيراً من عيدان حقله مهشمة، فظن على الفور أن عبد ربه ينتقم، وسارع بدوره باستدعاء بعض عزوته من شتى الأطراف، قريب له يعمل بوزارة الأوقاف، وآخر بوابٌ في عمارة هامة بالاسكندرية دفع خلواً كبيراً للبواب السابق كي يعمل مكانه، كما أحضر إلى داره زوج ابنته البكرية وبعض أنسبائه.. وبهذا صار كل من عبد المولى وعبد ربه على أتم استعداد للمعركة الفاصلة!!

وحقنا للدماء فقد توسط أهل الخير للفصل بينهما، وقبل أن يصلوا إلى حكم كانت ظاهرة العيدان المكسورة قد انتقلت إلى زراعاتهم أنفسهم، وعلى هذا استبعدوا أن يكون الفاعل آدمي حانق أو بهيمة طائشة!.. ثم خطر لهم أن يراقبوا الحقول عن كثب، وسرعان ما تكشف لهم العجب، ورأوا الفاعل رؤية العين متلبساً!.. اكتشفوا أن البلدة كلها واقعة تحت هجوم جبان لمئات من الفئران،

وأن الفأر منها يقرض ساق النبتة الطرية من أسفلها فتنكسر وتقع، وعندئذ يعافها ويختار ساقاً أخرى وهكذا!!.. وعلى الفور أدرك عبد ربه أنه ظلم عبد المولى، وعذر عبد المولى صاحبه عبد ربه، وصرف كل منهما أقاربه من أهل قوة الذراع فسافروا، واستبقيا الآخرين من أهل السطوة ذوي الباع، لائذين بنفوذهم وحنكتهم .. واجتمع بهم باقي المنكوبين لمناقشة الخطر اللعين، حاسبين سرعة تكاثر الفئران الرهيبة!!.. وحمي النقاش وشربوا عشرات من أكواب الشاي الغامق ودخنوا عشرات من أحجرة المعسل، إلى أن صاحت ديكة الفجر!.. وانتهت اجازات أهل النفوذ فسافروا تباعاً، بعد أن أجمعوا على قرار حاسم: أن يتكاتف السكان في تجريدة للقضاء على الجرذان بقتلها في كل مكان!!

وهذا مجمل ما كان عن كيفية حقن الدماء بين عبد ربه وعبد المولى..

وما هي إلّا دقائق حتى جاء عبد المولى للترحيب بحامل الدكتوراه العائد، وفي أعقابه دخل عبد ربه، فقال الأب حازماً:

ــ افتكرنا القط فجاء ينط!!

سأل ياسر في براءة:

ــ ما هو القط؟؟

فدهش الدكتور، وقبل أن يعلق نظرت أخته إلى الفأر الدمية وقالت:

ـ وهكذا يا أخي العزيز كنت كمن جاء يبيع الماء في حارة السقايين!!

هز رأسه موافقاً:

ـ وهذا يذكرني بما فعله معي صديقي الانجليزي

فطالبوه بتفاصيل هذه الفعلة..

○ حكاية زيارته إلى ريف الانجليز:

وكان ذلك منذ أربعة أعوام عندما دعاه صديق عزيز إلى زيارة ريف الانجليز، فلبى الدعوة وركب القطار من لندن، وبعد ساعتين نزل محطة صغيرة، فوجد النظافة والجمال والهدوء والزهور في أبدع رونق، الأبيض والأصفر والأحمر والأزرق.. وبعد الغداء أخذه صاحبه في رحلة خارج القرية، حيث سار في طريق صاعد يشق غابة رائعة، وبعد حوالي الساعة توقف، وكانت هناك سيارات أخرى راكنة، ونزلا، وسار به الانجليزي بين الأشجار ليجد عدداً من الأمهات والكبار بصحبة أطفالهم الصغار، الذين انهمكوا سعداء في مداعبة أربعة من الحمير الصغيرة!!.. دهش وسأل مضيفه:

ـ هل أحضرتني إلى هنا لمشاهدة هذه الحمير؟!

ـ ما رأيك، أليست ظريفة؟؟

ـ جداً، وتستحق أن أطير من مصر عبر البحر المتوسط وفوق القارة الأوروبية ثم عبر المانش ثم أركب القطار لمدة ساعتين وسيارتك لحوالي الساعة كي أشاهدها!!

وهذا بالضبط ما كان من أمر زيارته لريف الانجليز . .

قهقه عبد المولى ناظراً إلى عبد ربه:

ـ الا يعرف أن الحمير لدينا كثيرة؟!

رد الدكتور:

ـ كما لم أعرف أنا ان الفئران صارت في بلدتنا غفيرة، لعلها السبب في هروب سائق التاكسي من بلدتنا؟!

ـ طبعاً، وآخر سائق توقف للراحة عندنا كان منذ ثلاثة أعوام، فقد جلس ليدخن تعميرة معسل . وعندما نهض لينصرف وجد أحد إطاراته فارغاً من الهواء وقد قرضه فأر فثقب . وبعد أن أبدل الاطار وأراد السير لم يدر المحرك، كانت الفئران قد قرضت بعض الأسلاك الداخلية!!

هز الدكتور رأسه عجباً:

ـ وأين القطط؟!

صاح ياسر:

ـ ما هي القطط؟؟

فتحسر الوالد:

ـ لم تعد لدينا قطط منذ زمن، بالتحديد بعد مولد هذا الولد بعدة شهور، ولهذا فهو وأقرانه لا يعرفونها!!

ـ لا تقل يا والدي الموقر أن الفئران قتلت القطط؟!

ـ ليس بالضبط

ــ فكيف كان بالضبط؟؟

○ حكايتهم مع الحيص بيص:

من البداية حاولوا القضاء على هذا الوباء بالجهد الذاتي، كل فلاح يذهب وأولاده إلى الحقل مسلحين بالأحذية القديمة وألواح الخشب وكل ما يصلح في صرع فأر، لكن النتيجة كانت وبالاً، فالمطاردة في الغيطان أدت إلى اتلاف عدد أكثر من العيدان تحت أقدام المطاردين، وفي أغلب الأحوال أفلت العدو اللعين!!.. ثم جاءتهم فكرة القطط، بإمكان القطط التحرك بين الزرع من غير أن يكسر أي نبت كبير أو صغير.. لكن الذي حدث أن الواحد منها كان يقتل فارين أو ثلاثة ويلتهمها وعندها يشعر بالشبع، فيستلقي ناعم البال متمرغاً تحت الظلال، والعدو يروح ويجيء وهو مستلقي تحت نفيء!!.. وبحسبة سهلة أدرك الأهالي أن معدل تكاثر الأعداء أسرع من النشاط الهضمي للقطط الأصدقاء!!.. وتندر بعضهم بأنه أولى بجهاز تنظيم الأسرة أن يركز دعايته على هذا الحيوان المتلاف: «أسرة فئرانية صغيرة أسعد من أسرة كثيرة العدد».. «اللولب يا سيدتي الفأرة ليست له آثار جانبية.. وتحديد النسل يضمن لك جسداً رشيقاً».. «أسرة المستقبل لا تطلب التحديد بل التنظيم»!!.. وضحك بعضهم في مرارة ثم جلسوا يشربون الشاي الغامق ويتشاورون في حل فعال..

وكان أن شكلوا وفداً منهم نزل إلى القاهرة لمقابلة نائبهم في

مجلس الشعب، ولأنه يعرف أن قريتهم كانت تؤيد منافسه الساقط فقد استقبلهم بترحاب فاتر واستمع إلى شكواهم في شيء من الشماتة، ووعدهم ببذل أقصى جهده، فعادوا وانتظروا، ولم يبذل أدنى جهده انتقاماً لتأييدهم الأرعن لمنافسه الساقط!! . . وهكذا ظلوا غارقين في الحيص بيص إلى أن جاءهم الفرج في شكل كرب!! . . إذ أن الفئران وسعت من نشاطها حتى شمل القرية المجاورة المولود فيها نائب الدائرة، فكان أن سارع أهلها إليه، وعندها بذل قصارى جهده لدى وزير الزراعة، الذي اهتم بالموضوع وأحاله إلى المدير المختص، فشكل على الفور لجنة من المختصين، منه شخصياً واثنين آخرين حرص على أن يكونا أقرب ما يكون إلى عقليته لتحقيق الانسجام، مؤهلاهما هو ذات مؤهله أي بكالوريوس تجارة، مع فارق الأقدمية بالطبع . . وبعد الدراسة اقترحت اللجنة سفر أعضائها الثلاثة إلى سويسرا، بلد الأدوية والمبيدات والناس المستقيمين . . وبمجرد تدبير العملات الأجنبية للسفر والإقامة والبدلات توكلوا على الله وسافروا ومعهم مترجم . . وما هي إلاّ أسبوعان وثلاثة أيام حتى عقدوا صفقة مبيدات . عادوا بعدها بأكثر من هدية لأهاليهم ولذوي الحيثية . . وبينما الطائرة في السماء انتابت رئيس اللجنة انفعالات روحانية فأخرج مسبحته وحمد ربه على نعمته . .

وإلى أن جاء المبيد كانت الحيوانات المغيرة قد اتلفت دورة زراعية كاملة، وأنجبت سلالة جيدة الصحة بفعل الهواء النقي والأكل الطازج، وبدأ الفلاحون يستدينون، وأوصت وزارة الزراعة البنوك المعنية بتأجيل سداد الأقساط تقديراً لنكبتهم، ووعدت البنوك بالنظر إلى هذا الاقتراح بعين الاعتبار.. وجاء المبيد المنقذ، وتسلم كل مزارع نصيبه، وراح يرش أرضه، وكلما فتح إحدى العبوات وجد بداخله ورقة مصقولة مطبوعة بألوان جميلة فكان يحتفظ بها، وفي الليلة الأولى اجتمعوا واكتشف كل واحد أن زملاءه كانوا من الحصافة بحيث احتفظوا بهذه الأوراق اللامعة، وتساءلوا عن المكتوب فيها، فأعلن مدرسا اللغتين الانجليزية والفرنسية بمدرسة البلدة عن جهلهما بهذا النوع من الكتابة، وعندئذ صاح أحد المزارعين بأنه ما دام المبيد من سويسرا فالورقة مكتوبة باللغة السويسرية، وبأنها لابد «الضمانة» التي تضمن أن العبوة صالحة وفعالة، تماماً مثل تلك التي تعطي مع أجهزة التليفزيون أو الثلاجات!!.. وارتاحوا لهذا المنطق، لأن السويسريين ذوو ضمير يقظان ولا يعرفون اللف أو الدوران!!

وهذا موجز لبعض ما كانوا فيه من حيص بيص وتوهان!

قال الدكتور:

ـ لكنكم لم توضحوا لماذا اختفت القطط من بلدتنا؟!

سأل ياسر في إلحاح:

ـ ما هي القطط؟؟

فأسكتته أمه، والتفتت لأخيها النابغة في علم النفس:

ــ أنا أقول لك..

○ حكاية اختفاء صديق الانسان وكذلك أبي القردان:

لكل شيء سبب، ومجمل القول أن القطط كانت قد تعودت على الذهاب إلى الحقول من طلعة الشمس حتى غروبها، وتمردت وكادت أحياناً أن تهجر الديار، وعافت نفسها طعام الفلاحين من خبز جاف أو مغمور بالخضار، استهواها لحم الأعداء الطازج الدافىء الذي تناله بعد ممارسة شيقة لمتعة القنص، ثم بعد إشباع لساديتها عندما تتركه وتوهمه بالنجاة ثم تقفز وتمسكه ثم تعطيه الأمل ثم تنقلب عليه، وبعد ذلك تلتهمه طعاماً شهياً. لهذا فشل الناس في ابعادها عن الغيطان بعد وصول المبيد والاستغناء عن خدماتها، وصارت تهرب من البيوت وتفر إلى الغيطان بينما عملية الرش شغالة، ولأن السم لا يقتل الفأر من فوره فقد كان يحدث أن يلتهم القط فأراً متحركاً فيسري السم إلى أحشائه مع فريسته!!.. فماتت القطط ضعيفة البنية عند الظهيرة، أما القوية فقد عافرت مع المنية حتى آذان العصر، وهكذا أخذت الحيوانات صديقة الانسان في التناقص حتى بقيت منها أعداد قليلة طفشت من البلدة هاربة بجلدها، دهست سيارات الطريق بعضها وماتت البقية من مبيدات القرى التي لاذت بها، ومن زمنها اختفت القطط لدرجة أن الأطفال من عمر ياسر صاروا يسمعون عنها ولا يعرفونها!!.. كذلك فقدت القرية الطيور

آكلة الديدان!

وهذا ما كان من لغز فناء أبي قردان والقط صديق الانسان! . .

صرخ ياسر في الحاح:

ــ ما هو القط؟؟

قالت أمه:

ــ القط حيوان طيب صغير، يكره مثلنا الفأر الشرير

قال:

ــ أريد قطاً

فنهرته فبكى، فأشفق عليه خاله الدكتور ووعده بإحضار قطة له مهما كان الثمن، وبهذا كف الطفل عن الصراخ، وبعد أن سكت سأل خاله ان كانوا قد قضوا على الفئران من بعد فناء القطط؟ . .

فرد عبد ربه:

ــ بالعكس، ولهذا أيضاً سبب

ــ أعرفه كي يبطل العجب!

○ حكاية دوخة الرأس:

كانت الزراعة الجديدة قطناً، ومع استمرارهم في استعمال المبيد تزايدت أعداد الفئران الصريعة، وكان هذا يعزيهم عن تزايد قيمة الديون التي كانت البنوك ما زالت تنظر في أمر تأجيل أقساطها بعين الاعتبار. . ثم حدث أمر جلل، إذ بدأ مسعود عبده يشكو من

آلام في بطنه فاتهموه بأن في أمعائه ديدان الاسكارس، لكن طبيب الوحدة أنكر ذلك وفشل في تشخيص العلة كذلك، وفشل معه أكثر من طبيب وأكثر من دواء، وفي النهاية ومع مرور الأيام أصبح من مظاهر الحياة اليومية في البلدة وجود الناس والحمير والبقر والفئران، واختفاء القطط وأبي القردان وشكوى مسعود عبده من آلام بطنه!!..

ثم تلاه صبحي عبد القدوس الذي شكا من دوخة في الرأس، دوار كان يدفعه إلى الاستناد على أقرب جدار، وشخَّص الطبيب العلة بأنها أنيميا حادة، وظل يعطيه من مكونات الحديد حتى كادت معدته تتزرنخ، وفي النهاية أضيفت دوخة صبحي عبد القدوس الى مظاهر الحياة اليومية!.. بعد ذلك أصيبت الصبية أزهار بالتهاب في عينيها وفشلت معها جميع أنواع القطرة والمراهم حتى ضعف نظرها وقدمت مشكلتها، لكنها ظلت تحتفظ بتعاطف الناس معها لأنها شابة وعلى مشارف الزواج فإن ضاع بصرها مال بختها وضاع عدلها!!.. ثم ظهرت ثلاثة حالات قيء، أضيفت إليها في اليوم التالي خمسة ثم أربعة. وفشا الرعب بين الخلق قاطبة ظناً أنه وباء الكوليرا. وهنا خاف طبيب الوحدة فأبرق إلى وزارة الصحة، وعلى الفور حوصرت القرية برجال الأمن المركزي، وجاءت سيارات الأسعاف ونشطت المعامل، وأبرقت وكالة الأنباء الأجنبية النبأ إلى بلادها بالتلكسات، وبمجرد أن ظهرت نتيجة التحاليل أطمأنت الوزارة وأمرت بفك الحصار وتجاهلت وكالات الأنباء هذا الإجراء - إذ لم يكن القيء

بفعل وباء الكوليرا وإنما بسبب مادة سامة دخيلة على البيئة هي ذلك المبيد الفأري السويسري! . ونصحت بالكف عن استعماله لأنه أيضاً سبب المغص والدوار وذبول عين أزهار!! . .

وجاهر الفلاحون بالشكوى في كل مكان، فغضبت وزارة الزراعة، واجتمعت اللجنة الثلاثية بشكل طارىء، وسارع رئيسها باستدعاء المترجم وجعله يقسم على أنه ترجم جميع مطالبهم بأمانة إلى الجانب السويسري، ففعل وأقسم أيضاً على أنه ترجم ردود الجانب السويسري بدقة وحرفياً، فاطمأن ضمير اللجنة وأصدروا بياناً بأن المبيد بريء والخطأ في جهل الفلاحين . . ومع استمرار تبادل الاتهامات طالت المدة، وأضيف الجدال إلى مظاهر الحياة اليومية!!

وهذا جميع ما كان من أمر الدوخة والقيء ووجع العيون

غلى الدم في عروق الدكتور، وأعلن عن عزمه بالذهاب إلى العاصمة لمقابلة المسئولين . فدعوا له بالتوفيق المبين . .

○ حكاية القط الذى ليس كلبا :

بالفعل غاب الدكتور بالقاهرة أحد عشرة يوماً . ثم عاد فى مساء الثانى عشر حاملاً معه قطاً هدية للولد ياسر. الذى احمر وجهه انفعالاً، ورهب في البداية الاقتراب من الحيوان الصغير، فلما مد كفه يربت على ظهره مال القط إليه فأحبه الولد حباً كبيراً . . غير أن

أمه لم تكن مطمئنة البال، فلو حدث وعرف القط طريقه إلى خارج الدار فسوف يموت مثل باقي أسلافه، وإن لم يمت فسوف يسرقه أحد الأهالي، وإن لم يسرق فسوف يتكالب الأطفال عليه حتى يقتلونه رعباً وتفعيصاً!! . .

وحلاً لهذا المشكل اقترحت ربط القط من عنقه بحبل، اعترض أبوها لأن القط إن ربط اختنق لأنه يحب القفز ولأن عضلات عنقه ضعيفة، ولأنه ليس كلباً!!

بعد النقاش وافقوا على الربط، ولكن بحبل طويل يسمح له بالحركة والنط، وذهبت الأخت وابنها وأمها إلى غرفة ياسر لتنفيذ هذا الحل. . فانتهزها الأب فرصة وهمس لابنه بأن الحبوب المقوية التي أحضرها من لندن فاسدة ومغشوشة، دهش الدكتور:

ــ مستحيل. . لماذا؟؟

ــ استعملتها طيلة غيبتك ولم تأت بفائدة

ــ وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر يا أبي؟!

ولم ينقذه من لوم الأب سوى عودة أمه وأخته ومجيء عبد ربه وعبد المولى، وطالبوه بتقرير مفصل عن رحلته، وبينما كان يروي ما حدث عاد ياسر بعد أن اطمأن على قطه وجلس على حجر خاله الذي صار محبوباً لديه. .

○ حكاية اللغة التي لم يفهموها:

والذي حدث أن رئيس اللجنة المشترية سأله في عداء إن كان صحفياً، وما إن تأكد أنه مجرد حاصل على الدكتوراه في علم النفس حتى انتفش وراح يعايره بجهل بلدياته، رد الدكتور على الهجوم بهجوم مضاد فأخرج ورقة من الأوراق المصقولة وقال:

ــ بهذه الضمانة يمكن للأهالي رفع قضية ضدكم وطلب التعويض العادل!

أمسك رئيس اللجنة بالورقة مرتبكاً، تأملها ملياً فوجدها لامعة ملونة فأعلن بأنها ليست ضمانة، ثم سكت في غموض ولم يضف كلمة واحدة! . . وشعر الدكتور بأنه لن يخرج منه بحق أو باطل فانصرف مقهوراً، وراح يزور عدداً من أصدقائه وجد بينهم من قرأ ما بالورقة المصقولة بسهولة شديدة لإجادته اللغة الألمانية. . وكان المكتوب بها عبارة عن شرح لكيفية استعمال المبيد وللإحتياطات الواجب اتباعها بسبب خطورته على الإنسان والحيوان والطيور!!

وتلك بالتمام والكمال نتيجة مساعي الدكتور

وجم الجميع، واستنكر عبد المولى:

ــ لكننا لا نعرف اللغة السويسرية!!

سأل ياسر:

ــ ما هي اللغة السويسرية؟؟

نهرته أمه فسكت على مضض، وقال الدكتور:

ــ حتى لو عرفتوها!!.. السؤال الأهم هو: من أين جاءت الفئران أصلاً؟؟

أسكتهم الضيف مدة فأعطوا الفرصة لياسر أن يهتف:

ــ أريد لغة سويسرية!!

لم يأبه به أحد، ورأى وجوههم مكفهرة، فانصرف إلى قطه الجديد، وما هي دقيقة أو أقل من الدقيقتين إلاّ وعاد ممتقعاً زائغ العينين، ليتجه رأساً إلى خاله الصامت قائلاً:

ــ القط يرفض الحديث معي!!

رد الدكتور مسروراً:

ــ لعلك حدثته باللغة السويسرية؟!

ــ قلت له بسبس بالعربي فظل محملقاً مخرجاً لسانه لي!!

ــ أخرج لسانه لك؟!.. قط قليل الحياء، تعال معي..

ذهب معه إلى الغرفة فوجد القط معلقاً من عنقه مخنوقاً!!.. تابع مسار الحبل فخمّن ما حدث، إذ يبدو أنه دار حول المقعد القريب فالتف الحبل وقصر، ثم صعد الترابيزة العالية، ولعله رأى فأراً فقفز نحوه، وتوتر الحبل تماماً وظل معلقاً حتى اختنق!!

فكه الدكتور متألماً، وعاد بياسر إلى غرفة الضيوف والولد في نحيب عصبي، وصدم الجميع واحتج الأب:

ـ قلت لكم أن القط ليس كلباً!!

وتحسرت الأم:

ـ من جديد عادت البلدة بلا قطط!!

بان الكمد والغيظ على وجوه الجالسين، فظلوا صامتين.. وبعد برهة تعب ياسر من النحيب فسكت ثم نام في حجر أمه بالدموع في عينيه.. ونهض عبد ربه لينصرف وذهب معه عبد المولى.. وساد الصمت، ثم تحدث الأب عن قضايا الأطعمة الفاسدة التي استوردها بعض خربي الذمة، وعن تستر بعض الكبار عليهم وعن انهيارات عدد من العمارات حديثة التشييد بسبب الغش في مواد البناء!!.. وذهل الدكتور لسماع كل ذلك.

وعاد الصمت يثقل، وخلا الليل لنقيق الضفادع ولبعض التنهدات الحزينة.. وبعد دقيقة صاح أحد الديكة فنظر الدكتور إلى ساعته مستغرباً:

ـ لماذا يصيح والفجر ليس بوشيك؟!

فنصحه أبو ياسر والضيق يطبق على صدره بألا يبالي لأن هذا الديك ديك عبيط!!.. أراد أن يسأل: وما هو الديك العبيط؟!:. لكنه لم يشعر بأقل رغبة في الحديث.. فسكتوا جميعاً عن الكلام المباح، من غير أن يطلع نور الصباح.

الحادثة التي جرت

جنحت الشمس إلى أقصى الغرب، قرص أحمر يتأهب للمغيب، يتسلل هابطاً للمبيت.. ودعتها العصافير بتغريد كالضجيج، وعندما صار الوقت بين النهار والليل صعدت إلى أوكارها لتنام أسوة بالشمس، ما إن حط الظلام حتى نامت مطمئنة إلى مخزون القمح الوفير. منذ اسبوعين كانت الشونه خالية منه، ثم إذا بالرجال يحضرون عشرين زكيبة، زادت تباعاً حتى امتلأ المكان بتلال من الزكائب، التي تسرب منها بعض الحب إلى الأرض، وجدت الطيور فيه رزقاً سهلاً..

بعد أقل من الساعة تصاعد في سكون الليل صوت رجالي مشروخ، ناح حزيناً مردداً: «يا ليل يا عين، يا عين يا ليل».. لحظات وكانت العصافير قد استيقظت ونهضت تستطلع السر: رأت الفلاحين جالسين متلاصقين صامتين، وفي مواجهتهم رجل غائر العينين، يعزف على آلة الربابة نغماً باكياً، يهتز عنقه الطويل يميناً ويساراً، وتنفر عروقه منشداً موالاً مؤثراً، يستقبله المستمعون

بالتجاوب وهز الرؤوس وطلب المزيد!!.. ولم تفهم العصافير معنى الأغنية!!

وكان يسكن في أعلى فرع للشجرة غراب واسع العلم والحيلة، أقلقته هذه الأصوات وجافاه النوم، فطار هابطاً إلى العصافير يستأنس بها.. ما إن غنته حتى هللت مرحبة. إذ كان صديقاً لها. متعلماً يفهم لغة الأنسان.. وطلبت منه أن يترجم لها ما يقال. مال برأسه ينصت ثم تكلم:

ـ يبدو أنهم يحتفلون بمناسبة ما، وأن الرجل غائر العينين ينشدهم موالاً شهيراً لديهم..

أصغي من جديد ثم قال:

ـ إنه يحكي عن الحادثة التي وقعت على السبع شرقاوي، الأسم أدهم لكن اللقب شرقاوي..

سأله العصفور ذو الحوصلة الصغيرة والريش الطويل إن كان السبع شرقاوي هذا أسداً؟؟

فابتسم وأجاب:

ـ بالطبع لا أيها الطيب، إنهم يصفون الرجل الشجاع بالسبع، والمرأة الرشيقة بالغزال، والأغبياء بالحمير، وينعتون السذج بأن لهم أجسام البغال وأحلام العصافير!!

إمتعضوا من هذا التجني، لكن الغراب عاد إلى تفاصيل الموال، يوجزها فى ترجمة فورية، إذ حدث أن اغتال أحد الفجار

عم أدهم، فما كان منه إلا أن ثأر بقتل ابن القاتل.. جاءت الحكومة وسألت: لماذا قتلته يا أدهم؟؟.. أجاب: وماذا فعلتم عندما قتل عمي؟!..

• اندمجت العصافير وراحت تهز رؤوسها تعاطفاً مع بطل الموال.. وكان أكثرهم طرباً هو العصفور الشاعر الذي همس لجاره متحسراً:

ـ أنني أحسد هؤلاء الناس، لهم بطل ينشدون عنه موالاً، أما نحن معشر العصافير فليس لنا بطل أو موال أو سيرة!!

في الليل المتأخر انتهى الغناء وانفض الجمع، وأوى الغراب إلى فرعه الأعلى، ونامت الطيور حزينة من نهاية الموال الفاجعة: كان عدو أدهم خطيراً فاجراً، مسنوداً من السلطة والشرطة.. وكان الأدهم شجاعاً هماماً وفي النيشان صياداً.. لكنهم طاردوه وبعشرات العسكر حاصروه.. أول رصاصة في الكلية جاءت، الثانية في بزه اليمين مرقت، الثالثة لبزه الشمال هتكت، والرابعة بين القلب والسرة غدرت.. سقط الفتى فوق الحصى، في بحر من دماه عام، في النزع الأخير قال: انتهيت يا أدهم انتهيت، عار عليك يا رصاص أن تأتي في جسم الحر وتهزه، الثأر أمانة يا خلان للحادثة التي جرت على سبع شملول، وطئه العسكر، قتلوه!!

* * *

من أقصى الشرق تسلل الضوء هزيلاً واهناً، يبشر بشروق جديد. . واندهش الفجر لأن العصافير لم تغرد له كعادتها!! . . احتار. وعندما عرف من أخيه الليل أنها قد سهرت طويلاً لم يعلق، وراح يؤدي وظيفته الأزلية، مرسلاً بالمزيد من نوره، ورغم هذا ظلت تغط في نومها. مثلها مثل أهالي البلدة.. إلى أن وقع ما أيقظها فزعة.

من خارج الحدود جاءت أصوات كالرعود النائية، اقتربت ودنت حتى غدت زمجرة مرعبة، اهتزت منها النوافذ والأسرة والأشجار والأوكار، فهبت الطيور من نومها جزعة، ومن كان منها صغير العمر صاح بأن هذه علامات الساعة، لكن العصفورة الجدة فضحت جهلها وقالت:

ــ إنها بالفعل علامات الساعة، ليست القيامة، وإنما كارثة أخذ زكائب القمح!

ــ إلى أين؟؟

ــ إلى مكان يخرج عن نطاق أجوائنا

أمام أعينها الملتاعة دخلت عربات النقل هادرة، مثيرة التراب وصياح الأوز ونباح الكلاب. . وتجمع الرجال والنساء والأطفال، وزاد الضجيج وتضاعف. . وكان الغراب قد استيقظ وانهمك هو أيضاً يراقب، رأى السيارات تتوقف والآلات تصمت تباعاً، وموظف الشونة يرحب بالجميع، ويبالغ في الحفاوة بشخص غريب ذي

شارب كث عجيب، بينما بدأ الرجال يحملون الزكائب من الشونة إلى عربات النقل.. لم يكن الأمر يهمه من قريب أو بعيد، ولم يعجبه هواء الفجر وقد تلوث من عادم البنزين، فراح يمسح منطقة نفوذه بعينيه النفاذتين باحثاً عن فأر غير حذر ينقض عليه، لم تكن من شيمته التهام العصافير ولا حتى أفراخها العاجزة عن الطيران، لهذا كان محبوباً من الجميع، عدا بني البشر الذي يعرف أنهم يكرهونه!.. لكنهم اليوم منشغلون عنه تماماً، والفرصة سانحة لقنص طعام اليوم من بين كتاكيتهم ودواجنهم المستعبدة، والتي يطعمونها ويسمنونها ثم ينحرونها ويلتهمونها. أنه أولى بها منهم!!

فرد جناحه القويين في جولة استكشافية، غير أن نظرة جانبية منه إلى غرفة موظف الشونة جعلته يجنح عن مساره، ويهبط واقفاً على ضلفة النافذة المفتوحة، إذ رآه ينفرد بالرجل ذي الشارب الكث العجيب، فدفعه حب الأستطلاع إلى التجسس لمعرفة سر هذا التكتم، ووقف يصغي:

كان الموظف ممتقعاً والرجل يهاجمه في مكر ودهاء:

ــ زعمت في العام الماضي أن نسبة الفاقد من القمح زكيبتان من كل مائة.. وهي نسبة مبالغ فيها لكني تغاضيت!!

ــ فضل من سيادتك وتعطف، غير أن عصافير هذه المنطقة من نوع فتاك، تهتك نسيج الزكائب بمناقير كالمناشير، ثم تنهال على الحبوب التهاماً وإتلافاً!!.. أقسم على هذا!!

ـ مهما كانت شراستها فإن الفاقد لا يتجاوز التزكية الواحدة. . صمتاً لا تقاطعني. . أي أنك أخذت لنفسك واحداً بالمائة من إجمالي غلة المنطقة، وهذا يسمونه سرقة!

ـ غير صحيح، والجميع يشهدون بأني رجل يعرف الله ويخافه

ـ كلنا ذلك الرجل، خاصة الكبار في المدينة، لقد دونوا في سجلاتهم نسبة الفاقد على أنها عشرة بالمائة، يعني عشرة زكائب من كل مائة!

ـ هذه هي السرقة، وسرقة مكشوفة!!. . أخبرني عن التحقيق الذي جرى. .

ـ التحقيق الذي جرى؟!. . من يحقق مع من؟!. . لقد تفاهموا وتعاونوا، وتقاسموا كل حسب منصبه ودرجته!

ـ والرؤساء؟؟

ـ لهم نصيب الأسد، المبلغ ضخم، وعندهم نصيب محاصيل شون البلاد كافة!

غطى العرق جبين الموظف، فغر الغراب منقاريه دهشة. . وقال ذو الشارب الكث:

ـ هذا العام وبالنسبة لهذه الشونة، فإن ما أكلته الطيور الشرسة قيمته عشرة بالمائة. . صمتاً ولا تقاطعني. . سنقتسم هذا المقدار بيننا، لكل حسب منصبه ودرجته، وطبقاً للعرف الجاري. .

وقف ريش الغراب غيظاً. . تلعثم الموظف:

ـ سيقولون في المركز الرئيسي أنها نسبة عالية!

ـ ألم يحتسبوها هم بهذا القدر في العام الماضي؟!

ـ وإن حدث واعترضوا؟؟

ـ نرد مطالبين بمبلغ من المال لشراء المعدات والمبيدات لمقاومة الطيور، وكله مكسب!

إهتز الغراب غضباً، فأصطكت ضلفة النافذة. ولمحه الموظف فلعن جنس الغربان وهو يهب محضراً البندقية من ركن الغرفة.. قبل أن يصوب كان الطائر قد أقلع مرتفعاً إلى أعلى ما يستطيع، إلى أن بدت عربات النقل من تحته كالدمى الصغيرة.. أكثر ما يمقت من جنس الأنسان هو تلك الآلة الرهيبة التي ينطلق منها الرصاص، وأكثر من مرة حاولوا قتله، خاصة هذا الموظف، ومن غير سابق عداوة، وإنما لمجرد اعتقاد فارغ بأن الغراب ـ أي غراب ـ نذير شؤم!!

* * *

توسطت الشمس السماء وصارت لهيباً. وبدأت تنجذب نحو الغرب.. وعندما سمع الغراب أصوات المحركات تدور خمّن أن السيارات في سبيلها إلى الرحيل، فتسلل إلى الموقع من جديد، وحط فوق الشجرة يشاهد العربات وهي تهدر بحمولتها الضخمة بعد أن توزعت تلال الزكائب عليها.. كلما مضت حمولة زادت لوعة العصافير على ضياع القوت السهل!.. وابتعدت عربة ثم أخرى

فثالثة، تسع عربات، وبقيت العاشرة رابضة.. أيقن أنها نسبة العشرة بالمائة، ثم راح يتأمل وجوه الأهالي وجسم الجريمة ماثل أمامهم!!.. تسلل مختبئاً بين غاب البوص، متلصصاً على بعض المتهامسين، أصغي وهو صامت كالجماد، بعد أقل من الدقيقة أدرك أن شكهم يكاد يكون يقيناً، لكنهم أيضاً خائفون، يتلفتون حذرين ثم يتشتتون منكسرين!!.. رآه أحدهم فرماه بحجارة، كان أسبق منها إلى الأنطلاق، مندفعاً كالبرق حتى وقف إلى جوار العصافير لاهثاً.. سألته العصفورة الجدة عما حدث، بعد أن التقط أنفاسه قال:

ــ جيرة الشجرة تحتم على البوح لكم بما عرفت، فالأمر يخصكم.

تواثبوا مقتربين منه.. أومأ إلى العربة الرابضة:

ــ هل ترون حمولة القمح هذه، لقد إلتهمتوها أنتم وعن آخرها!

تبادلوا نظرات المكر الصغيرة، لكن الجدة سارعت تقول في تأدب:

ــ عفواً أيها الصديق الموقر، كيف يكون ذلك وهي ما زالت هنالك؟!

وعلى الفور راح يشرح مجمل المؤامرة التي حيكت.. وهم مصدومون. شاعرون بالغبن. ثم بالظلم ثم بالغضب.. بعد أن إنتهى تصايحوا محتجين هائجين.. إلى أن أسكتهم متسائلاً عما سيفعلون؟؟

وجموا حائرين، ثم إرتعش صوت الجدة مكلوماً:

ــ نفعل الصمت

ــ تفعلون ماذا؟!

ــ نفعل الصمت، الأرض لهم والشجر لنا، والصمت حكمة

إحتج العصفور ذو الحوصلة الصغيرة بأن هذه حكمة الخانعين، فنقرته الجدة مؤنبة! . . ثم حدث أن تكلموا جميعاً في نفس الوقت، حتى تبرمت الشجرة وتضررت، وإستاء الغراب وطار إلى فرعه العالي. . لكنهم عندما زمجر محرك الحمولة المسروقة تصنموا، ورأوا الرجل ذا الشارب الكث يركب إلى جوار السائق. . فقال العصفور ذو الريش الطويل:

ــ لنمنعها، انها دليل الجريمة.

ــ أيها الغر الحالم، كيف تمنع طيور صغيره جبلاً تحركه آلة؟!

ــ ننقض جميعاً على السائق، بغتة واحدة، ننقر وجهه نعض كفيه ندق على أم رأسه. . بإمكاننا أن نفقأ عينيه ونوقفه عاجزاً عن القيادة، أو تنحرف العربة وترتطم وقد تنقلب، وبهذا يفتضح الأمر!

زقزقوا مستخفين. . تحفز وفرد جناحيه في حماس القائد الجسور:

ــ اتبعوني!

ثم انقض صوب السيارة المتحركة ـ أصاب الشلل أجنحتهم ـ

انـدفع كـالمغوار نحـو نافـذة السائق، دفعـه بظهـر كفه بعيـداً، شعـر بالدوار، صاح مثل الهمام يستحثهم ـ انتقل الشلل إلى عقولهم ـ عاود الهجـوم، دار دورة ثم واجه السيـارة، كأنـه يمنعهـا بجسـده الغض، صدمته، في بحر من دماه عام، في النزع الأخير صاح : الثأر أمانة يا خلان للحادثـة التي جرت على صقـر شملول. . ثم وطئته العربة. قتلته، سحقته!! . . استاء الغراب:

ـ طائش معتوه!!

ناح العصفور الشاعر من فوق غصنه الوارف:

ـ عار عليك يا حديد تمشي فوق جسم الحر وتطؤه ! !

إبتعدت العربـة تاركـة الغبار. . حط صمت كـريه على القـرية، دون تغـريد العصـافير، من غيـر نقيق الضفادع، بـلا نباح الكـلاب، حتى الديوك حان أوان آذانهـا ولـم تفعل!!

قبيـل الغروب حـدّث العصفور الشـاعـر نفسـه: مـات زميلي ذو الـريش الـطويـل، ومن واجبي أن أخلده وإلا فمـا فـائـدة أن أكــون شـاعـراً؟!. . ألم يتغن النـاس بـالحـادثـة التي جـرت على السبيع شرقاوي؟!. . سأمشي على نهج موالهم. .

ثم كـان أن قطع صمت الكـآبـة وأخـذ يـدنـدن، في خفـوت ثم بصوت مسموع. . تنبهوا إليه تباعاً، وبدأ ينشد بزقزقـة مشروخـة: «يا ليل يا عين. . يا عين يا ليل»

التفوا من حوله مطرقين بائسين، بدأ يحكي عن الحادثة التي جرت على «الصقر شرقاوي».. فأنصتوا وتأثروا وبكوا ونهنهوا.. وعندما انتهى وعاد السكوت تنهدت الجدة إرتياحاً:

ـ الآن أصبح للعصافير موال يتغنى عن بطل منا

ثم صاروا يطالبونه بأنشاده قبيل كل غروب، وهو يلبي طلبهم.. لكن الغراب لاحظ أنه يضيف في كل مرة تفاصيل جديدة لم تحدث، ويروي أعمالاً خارقة لم يفعلها زميلهم القتيل!!.. تعجب من أمرهم، صارت الحكاية خرافة!.. كما لاحظ بعد أسابيع أن العصافير القريبة حفظت الموال وراحت تنشده، فنقلته عنها زميلاتها البعيدة، التي أسمعته بدورها إلى العصافير الواقفة على أسلاك البرق والتليفون، وهؤلاء بثوه من عمود إلى عمود!!.. حتى ظن الغراب انهم رووه شفاهة إلى كافة جنسهم في جميع البلدان والنجوع.. فهز رأسه ساخراً:

ـ أحلام العصافير!!

لكنه عندما تأمل ضآلة أجنحتهم وصغر مناقيرهم أدرك كم هم ضعفاء، وأشفق على بؤسهم، وشعر نحو الأهالي أسفله بالمقت والبغض، وقرر أن ينتقم منهم بأن يلتهم أكبر قدر من كتاكيتهم الذليلة، وعندما تذكر تشاؤمهم من صنف الغربان زاد غله وكرهه لهم، وتمنى لأول مرة في حياته أن يصبح هذا الأعتقاد حقيقة، وأن

يكون لصوته فعل اللعنات المستجابة، ولمنظره سخط الأبالسة والشياطين.. ثم فرد جناحيه طائراً فوق الديار، البيوت والزرع والزرائب، صائحاً بصوته الذي يكرهونه:

ـ اللعنة أيها الناس، ها أنذا أحوم فوقكم نذيراً، أبث الشؤم وأنشر اللعنة.. اللعنة......

أمام قفص الأسد وقفت مبهورة الأنفاس، تحملق فيه :

ـ ما رأيك؟

رأيتها بديعة أخاذة، قلت :

ـ آسرة ساحرة

تماكرت :

ـ من تقصد؟؟

ـ من غيرك؟! طبعاً لا أقصد زوجة الأسد!!

ـ تلميح بالحب؟؟

ـ تصريح به

ابتسمت في عذوبة تراقب وجهي :

ـ سوف نرى، دعني أكمل ولا تقاطعني : ما رأيك في أن نغافل الحارس ونفتح الباب وندخل إليه؟؟

ـ إلى من؟!

ـ الأسد . .

نزوة جديدة ولا شكّ!!.. وبالأمس، بالأمس طالبتني بأن أمر عليها قبل طلوع الفجر، قالت:

ـ غداً، إن كنت ما زلت تحبني، نبدأ يومنا عند سفح الهرم، قبل طلوع الشمس..

ـ ولماذا قبل طلوع الشمس؟!

ـ كي أرى شروقها هناك، مؤكد له مذاق خاص

أخذتني عيناها فرضخت، وهناك أعطت ظهرها للشرق، وجلست فوق الرمال، تحتضن ساقيها المثنيتين بين ذراعيها، تراقب في صمت أبا الهول، وأشعة الفجر الأولى تتسلل إلى وجهه، وأنا أغالب النعاس وبرد الفجر، وهي ساكنة سكون الأهرامات، جامدة جمود أبي الهول!!.. وطال الأمر حوالي الساعة وحتى بدأ وصول السائحين، فسحبت نفسها من وجه التمثال المهيب وطلبت الأنصراف.

وطوال طريق الهرم الطويل لم تتكلم، تراقب في كسل التلاميذ والتلميذات في الطريق إلى المدارس، تتأمل الكبار وهم يبدأون يوم عملهم مجاهدين في سبيل ركوب الأتوبيس المكتظ، والطريق قد بدأ يزدحم بالسيارات، وهي على صمتها وحتى دخلنا ميدان الجيزة ثم مررنا أمام حديقة الحيوانات، وهي إلى جواري خاملة شبه نعسانة.. وكنت أتثاءب نوماً عندما تهلل صوتها بغتة تطالبني بالتوقف!!.. قطعت تثاؤبي:

ـ لماذا؟؟

أمرتني بلهجة عذبة أن أركب السيارة فأطعت، وتبعتها إلى الرصيف! . . وعادت تأمرني بصوت عاشق:

ـ أعبر الطريق . . أعبر . .

ثم اندفعت تسبقني صوب بوابة الحديقة، وعيناها على مجموعة من أطفال مدرسة في رحلة، بملابسهم الزاهية وبراءة وجوههم وسعادتهم بقرب مشاهدة الحيوانات . . وقالت:

ـ سندخل معهم

ـ لكننا ! ! . . . .

ـ نوع من العلاج النفسي

ـ لكننا لم نأخذ قدراً من الراحة ولم نفطر بعد ! !

كانت قد اندفعت تنفذ قرارها الفجائي، وقالت وهي تدور مع الباب الدوّار:

ـ من الخير أحياناً أن نبتعد عن الكائنات التي ليست على سجيتها، ونزور الأخرى التي لا تمثل ! !

ـ لكننا لا نزورها وإنما نتفرج عليها ! !

لم ترد منهمكة في متابعة الأطفال . . قلت:

ـ ثم إنها حيوانات سجينة فكيف تكون على سجيتها؟ !

لم تسمعني وقد أسرعت خلف الصغار تنفذ نزوة جديدة من نزواتها العديدة التي تباغتني بها فتثير حنقي، وإنما لثوان قليلة، ثم

سرعان ما أرضخ لها مأخوذاً بحيوتها الدافقة هامساً في داخلي: «كم احبها هذه المرأة، آسرة عند النزوة، ساحرة عند الرغبة» . .

تلكأت في أثرها متلفتاً حولي، الأطفال في كل اتجاه وقد بدأوا يلعبون تحت الظل وتحت الشمس. . وتوقفت هي تواجهني إلى أن لحقت بها، وجميع وجهها مبتهجاً:

ـ رائع الربيع

إنكمشت مندهشاً في ملابسي الشتوية، وأنا أتفحصها بوجه ساكن:

ـ الربيع!! . . نحن في عز البرد!!

ـ مسألة إحساس!

أخذت أناملي الباردة بين أصابعها، شعرت بها دافئة، ومع سريان حرارتها إلى بدني تأملتني عاتبة:

ـ الربيع بداخلي، هكذا أحس، الخريف إحساس والشتاء إحساس، كذلك الصيف. . الآن أشعر بالربيع!!

قلت في غباء:

ـ وماذا عن جداول المناخ وتوزيعات السحب والرياح؟!

لفظت أناملي مستاءة:

ـ تذكر، إن كنت تحبني: تظل حبيبي طالما تشعر بالربيع والزهور في داخلك . .

ثم لمحت الأطفال يلعبون بكرة كبيرة، فاندفعت تلاعبهم! . .

وجلست أنا على أحد المقاعد الخشبية أراقبها مستسلماً، وهي تقفز وتجري خلف الكرة بسعادة لا تقل عن سعادة الأطفال! . . وعندما ابتعدت الكرة بفعل ركلة قوية جاءتني لاهثة باسمة محمرة الوجنتين ومقدمة الأنف، لتجلس على ركبتيها في مواجهتي :

ـ لماذا لا تشاركنا؟؟

ـ لأننا أسأنا اختيار المكان

نظرت إلى الشعر الأبيض في جانبي رأسي . . قلت مرتبكاً:

ـ تطفلنا على أرض الأطفال!!

هبت واقفة إحتجاجاً، ثم جذبتني لتوقفني، فلما وقفت سحبتني من كفي، من طرقة إلى أخرى، لنمر على القرود القافزة، والحمر الوحشية بخطوطها والفيلة ببطء حركتها والنمور بنظراتها الملول والطواويس بإختيالها . . وهي تسحبني خلفها مسرعة الخطو حتى وقفت أمام أقفاص الأسود وقالت:

ـ ما رأيك؟؟ . . نغافل الحارس ونفتح الباب وندخل إلى الأسود!!

ـ هل سئمت من الحياة؟!

هزت رأسها امتعاضاً:

ـ لا تأخذ الكلام حرفياً . . أين خيالك؟! . . أنت تحده!!

تذرعت بالصبر وقلت محتجاً:

ـ لكن الأسد من آكلي اللحوم!!

ـ والإنسـان أيضاً. . يـا عزيـزي تنقصك ملكـة الخيـال!. . دع خيالك ينـطلق، لا تقيده، لـو أنا مكـانك لـوافقت على الدخـول إلى الأسد فوراً ودون تفكير.

ـ قلتها بنفسك: دون تفكير!!

ـ دعك من المنطق والمعلومات المتوارثة، لو عني لـدخلت إليه ودفعته إلى توقيع وثيقة تنازل!

ـ الأسـد يتنـازل؟!. . عن أي شيء؟!. . عن قفصـه، سجنـه هذا؟!

ـ أليس لقبه ملك الغابة؟!. . فليتنازل عن ملكه!!

ـ تخريف!!

غردت في صبر:

ـ كـل إنجاز كبيـر بدأ بفكـرة مثل الخـرافة. . ولعـل إمرأة مثلي وقفت هنـا ذات ليلة قمريـة قبل أن ينشئـوا هذه الحـديقـة، وطـالبت حبيبهـا أن يصعد بهـا إلى القمر، ولعله كـان مثلك فـسخر منهـا، وها نحن قد وطئناه!!. .

تأملت وجهها من جـديد، ولا أدري لمـاذا. . رأيتها أجمـل من أي وقت آخر!. . واجهتني بعينيها العسليتين فخفق قلبي بشدة. . هـربت بنـظراتي إلى القفص: كان أحـد الأشبال يتـأملها، أمـا اللبؤة فكـانت شاردة بنظرها إلى بعيد، ربما إلى حريـة الغابـة المفقودة، بينمـا ظل السبع مسترخياً لا مبالياً جاهلاً بمؤامرة حبيبتي على لقبه!

عنـدئذ قـررت أن أسحبها أنا من يـديهـا، وبقيـت تقـاومني حتى وجـدت نفسهـا خـارج الحـديقـة ثم على الـرصيف قـرب السيـارة، تجهمت وظلت عـابسة لا تسمـح لنظرهـا أن يـأتي في عيني، كـأنهـا عازفة عن رؤية وجهي، كأنها تكبت ثورة عارمة!! . . ولما فشلت في ملاينتهـا فتحت بـاب السيـارة فـركبت إلى جـواري دون كلمــة، لا تستجيب لمحـاولة جرها إلى الحـديث من جديـد!! . . وعبرنـا أمام فندق الشيراتون فقلت:

ــ نجلس هنا ونحتسي مشروباً دافئاً مع الفطار

هزت رأسها في عصبيـة رافضة . . عبـرنـا الـطريق فوق كـوبري الجلاء الصغير، صـوب كوبـري قصر النيل الكبـير، وبين الكـوبري الصغير والكوبري الكبير لاح لنا برج القاهرة الشاهق، وإذا بها تستدير لي فجأة فيما يشبه النزوة الجديدة:

ــ نتوقف هنا

توقفت من فوري فـرحاً بعـودتها لي، ونـزلنا، وسـرنا مـع طريق النيـل جـوار حـديقـة الأنـدلس البـديعــة، حتى وصلنـا إلى المســلة الفرعونية . . وسمعتها تقول:

ــ هذه المسلة، ما فائدتها؟؟

قبل أن أنطق رفعت أصبعها منذرة:

ــ لا تسرد لي المعلومات التاريخية الصماء التي أعرفهـا، أريدك أن تصاحبني الخيال، إن كنت ما زلت تحبني!!

فكرت بسرعة، لماذا أغضبها ما دمت أحبها؟!.. قلت:

ـ هذه المسلة تصلح مسواكاً أسلك به أسناني!

تهلل وجهها في إبتسامة عذبة:

ـ وهل أنت عملاق إلى هذا الحد؟!

ـ جربيني

ـ وقادر على حمايتي؟!

ـ بكل تأكيد

ـ لكنك أعزل!!

أشرت إلى برج القاهرة الشاهق:

ـ سأقتلع هذا البرج وأستعمله هراوة أدمر بها كل من يحاول أن يمسّك بسوء..

لثمت وجنتي في دفء حلو، أيقنت أنني غارق في حبها.. ثم مشينا على كورنيش النيل في سعادة وكنت منتشياً عندما سمعت صوتها راغباً:

ـ والآن ماذا عن الجو؟؟

سألت:

ـ ماذا عنه؟!

لكني سارعت أقول في صدق وحرارة:

ـ ربيع، أحس بها ربيعاً وزهوراً..

وضعت كفها في كفي، وقد صارا في دفء متساو، وهي تقول:

ـ فأنت حبيبي، وبإمكاننا أن نبتكر،

اغرورقت عيناه بدموع التثاؤب، تمنى لو ركن برأسه إلى مسند المقعد وغفا قليلاً، لكنه خشي أن يلتفت السائق ويراه نعسانَ . فجاهد في رسم سمة الأنتباه والجدية على ملامح وجهه. . لكن السيارة تزحف، محشورة بين مئات السيارات، ولا يستطيع أن يأمر السائق بالأسراع، يعرف جيداً القاعدة الأساسية للأدارة الحكيمة: إن أردت أن تطاع أؤمر بما يستطاع، فماذا يستطيعه السائق؟؟ هل يطير بالسيارة؟! . . لكن البطء يدفعه إلى الملل، والملل يولد النعاس الذي يجعله يتثاءب، والتثاؤب يملأ عينيه بالدموع، فيبدو وكأنه يبكي، وهذا لا يليق برجل في مكانته!

راح يتسلى بمراقبة السيارات وقائديها، جميعهم على عجل، كأنهم ذاهبون إلى مواعيد هامة، كأن أعمالاً جليلة في انتظارهم، بينما معظمهم في الطريق إلى زحم المكاتب والثرثرة وتعطيل سير العمل! . . وإن كان هو نفسه حريصاً على الذهاب إلى مكتبه مبكراً، عليه أن يكون قدوة حسنة، بهذا يضمن ألا يتأخر الموظفون. .

إنخلع قلبه من صراخ طويل كالعويل، صوت آلة تنبيه حاد لحوح. . حاول سائقه إفساح الطريق لسيارة زرقاء، سبقتهم ليحجزها تزاحم العربات. . تعجب من صاحبها: يسرع حيث لا تجدي السرعة، كأنه يعرف قيمة الوقت، ويزعجني بآلته الصاخبة، كأن زمجرة المحركات وإفراز العادم في حاجة إلى المزيد! . . وحشية وتبلد!! . .

غير أنه نسي كل هذا مع محاذاة السيارة التالية له . رأى بها وجهاً صبوحاً لطفلة لطيفة، رنت إليه في ود. . انفرجت أساريره عن مشروع ابتسامة، التقطتها الطفلة على الفور فهللت ملوحة له. . اتسعت ابتسامته وشعر بالحيوية تتدفق إلى وجهه، ورنا إليها بنظرة أخيرة قبل أن تسبق سيارته، ثم لمح السائق يعدل من وضع المرآة فعاد إلى قناع الجدية والرصانة. .

ذهبت تلقائية الطفلة بالنعاس من عينيه، فزال الكسل ونشط ذهنه، وشرد إلى أعوام العمر الذي تسرب :كيف بقي غافلاً طوال هذه السنين؟. . كيف لم تكلل حياته كما كان يتخيل وهو في عمر الأحلام، كيف لم تكلل بالزواج من حبيبة رائعة يعيش معها في «التبات والنبات» وينجبان الصبيان والبنات؟! . . سرقه الوقت وظل يؤجل، في البداية كان راتبه ضئيلاً فلهث وراء سراب كأنه الطموح، وقال أمتلك شقة فسيحة أولاً ثم أبحث عن شريكة عمري التي تسعدني وأسعدها . وعندما نال الشقة المريحة في «مصر الجديدة»

استمر يؤجل مقرراً امتلاك سيارة، فلما تم له أخيراً ما أراد واشتراها بمبلغ كبير، كان قد تبوأ وظيفته الحالية المخصص لها سيارة وسائق، فركن عربته بالجراج ولم يستعملها إلا لماماً، وبقيت تنتظر معه رفيقة الحياة المرتقبة، وكان الشيب قد بدأ يتسلل إلى شعره، ثم تحول التسلل إلى غزو انحسرت معه فرص الأختيار!!

خمسون عاماً ضاعت من عمره، وما زال لا يعرف معنى «التبات والنبات».. وإن أراد أن يعرف فليس أمامه سوى الزواج من عانس أو مطلقة أو أرملة، أو من شابة فقيرة تبهرها السيارة والشقة والمركز، ثم سرعان ما سوف تمل خريفه، وقد تبحث عن رفيق من عمرها، سراً أو جهاراً!!

* * *

أخيراً وصل ـ بعد عذاب الطريق ـ إلى مقر عمله.. دخل من باب المصلحة مكفهراً، رأى الموظفين منكبين على مكاتبهم في جدية بالغة، حياهم بوقار ساخراً في داخله: كأنهم يعملون!!.. ثم عاد يعذرهم: لكنهم يتقاضون نقوداً كأنها أجور!!..

رد تحية السكرتيرة برصانة.. أدخلت له البريد اليومي فصرفها دون اهتمام، ثم عاد يناديها:

ــ ما هذا؟؟

دهشت:

ـ للتوقيع، مثل كل يوم
رفع حاجبيه هاتفاً:
ـ طبعاً طبعاً، للتوقيع مثل كل يوم . . شكراً . . تفضلي . .

مثل كل يوم! . . هزه الأسى، هو عند الحكومة مجرد توقيع على أوراق رسمية، وعند صاحب البيت إيجار شهري، وعند إدارة المرور رخصة قيادة، وعند النادي اشتراك سنوي، وعند صديقاته العابرات سهرة مكلفة وعشاء ممتاز . وهو عند جرسون المطعم بقشيش سخي !

بدأ يحس كآبة غامضة فشل في تحديد سببها . لعلها رحلة المجيء من البيت إلى العمل، لكنها رحلته اليومية ولسنوات عديدة . . فتح ملف البريد، تداخلت الكلمات أمامه ولم يقرأ، وبقي وقتاً بائساً عازفاً عن العمل، إلى أن تذكر طفلة السيارة العابرة فزال تجهمه، لتحل محله بسمة عريضة، سرعان ما بدأت تذوب لينهض إلى دورة المياه الملحقة بمكتبه . . تأمل وجهه في المرآة، تكدر تماماً: مع تسرب السنين تسللت التجاعيد، ولم يتزوج ولم ينجب الصبيان ولا البنات . ولو كان قد تزوج في شبابه لكانت خلفته الآن في الخامسة عشر . . ولو قنع بالزواج فور الحصول على الشقة الفسيحة لكان لديه الآن طفلة مثل طفلة السيارة، يسعد بها كل صباح وكل مساء، يفرح بابتسامتها، يلاعبها يداعبها، يحبو من أجلها كي تمتطيه، يشتري لها كل ما تشتهيه، يوفر من أجلها الحياة الرغدة التي حرم منها في طفولته . .

لمعت عيناه بالدموع فتموجت صورته في المرآة، ضغط جفونه بشدة، ثم عاد إلى مكتبه.. ودخلت السكرتيرة تخبره عن بعض الزوار الراغبين في مقابلته لأعمال هامة.. طلب منها الاعتذار لهم.. إحتجت في لباقة:

ـ لكنهم قادمون بموعد مسبق!

ـ اصرفيهم بأي عذر، قولي لهم أن السيد الوزير استدعاني فجأة لأمر هام..

نبه عليها مؤكداً:

ـ أريد أن أختلي بنفسي لبعض الوقت، مفهوم؟

إنصرفت تنفذ رغبته.. لكن الوحدة أزعجته، فنهض إلى النافذة يراقب الطريق من خلف الستارة المعدنية.. عندما يكون وحيداً تؤرقه الأفكار ويعذبه الندم، وعندما يجالس الأصحاب يشعر بالملل يكاد يقتله، فماذا يفعل وإلى أين يلجأ أو يذهب؟!

* * *

تجاهل دهشة الموظفين وهم يرونه ينصرف مبكراً خرقاً لعادته الثابتة، تجاهل أيضاً دهشة السائق الذي فتح له الباب متسائلاً، وركب وجميع وجهه في تقطيبة حادة.. رغم تبكيره وجد طريق الأوبة ـ أيضاً ـ مكتظاً بالسيارات العائدة، هز رأسه استياء: كأنهم أنجزوا عملاً!!.. تخطته بعض العربات المسرعة: كأن السعادة تنتظرهم في البيوت!!

سأله السائق متردداً إن كان يشعر بتوعك فطمأنه بكلمات مبتسرة، ثم راح يراقب ثنائيات المشاة، يتأمل كل رجل مع امرأة، يدور برأسه متابعاً خطوات الأطفال على الرصيف.. تذكر شقته الخالية الباردة، لماذا يعود إليها مبكراً ولا حبيبة هناك تنتظره؟!.. سوف يمل سريعاً، سوف يعتريه الأكتئاب!.. وتمنى لو لم يغادر مكتبه، هناك شعر بأنه حبيس، وفي البيت سوف يموت ضجراً!!

مع دخول السيارة إلى مشارف مصر الجديدة تلفت إلى واجهات المحال المتلاصقة، رأى في إحداها سجادة جميلة، ثمنها يعادل راتبه لخمسة شهور مجتمعة بأجورها الإضافية ! !..والمقهى المجاور عامر بمدخني الشيشية: كأنهم يرفهون عن أنفسهم!!.. وعندما مر من جوار الفكهاني أشاح بوجهه بعيداً كي لا يقرأ أسعاره المرتفعة!!.. لكن أصوات دقات خافتة جذبت انتباهه، فعاد ينظر، وإذا به بغتة يأمر السائق بالتوقف، بالتقهقر إلى الخلف:

ــ إلى الوراء، إلى الوراء، عد إلى الوراء، أكثر.. هنا.. نعم هنا.. قف..

دهش من نفسه ومن نزوته العابرة، لكنه فتح الباب وهبط أمام محل لعب الأطفال.. رمق البائع العربة وسائقها فاستقبله باحترام فائق.. غير إنه لم يبتسم وبقي على حال صرامته، باحثاً عن مصدر الدقات الخافتة التي سمعها: وجد لعبة تعمل بالبطارية على شكل قرد ضاحك ممسكاً بعصا يدق بها آلياً على طبلة معلقة في عنقه..

أدارها البائع له من جديد، فراح يتأملها، يتمعن فيها بوجه جامد.. شعر بعاطفة غريبة تتحرك بداخله، فكر أن يشتريها ولكن لمن؟؟.. استحضر في ذهنه أقاربه، لكنهم لا يقيمون بالقاهرة.. ليته ما نزل من السيارة!!

تنبه إلى نفسه واقفاً بجسده الطويل وملامحه القاسية بين عدد من الأطفال الذين تجمعوا للفرجة، ما بين مبهور وضاحك، وباسمة، وماص لأصبعه، وباك لأمه التي عرفت السر فجذبته مبتعدة!..

خجل أن ينصرف دون شراء، فدفع ثمن اللعبة، وحملها السائق إلى العربة وهو في غاية الدهشة.. وعاد هو إلى مقعده الخلفي.. لمعت عيناه عاكسة رغبة عجيبة في إدارة اللعبة بنفسه، في مشاهدتها وهي تدق له الطبلة!!..

أمام العمارة نزل، وقف له البواب احتراماً فوضع قناع الجدية.. وفي المصعد رد تحية بعض السكان بالوقار الواجب.. وأخيراً دخل شقته، ومن فوره اتجه إلى غرفة النوم رأساً، خلع حذاءيه، رفع البيجامة من فوق الفراش، أخرج اللعبة من لفافتها، وضعها أمامه ثم أدارها، إنطلق القرد يحرك عصاه لتدق على الطبلة.. حملق سعيداً برهة، متحفظاً في البداية، متحفظاً في البداية، ثم تذكر أنه وحده دون رقيب، والقرد يطبل، وهو غارق في الضحك، يضحك ويقهقه، حتى اغرورقت عيناه، فضرب كفا بكف منبهراً من دقة صنع دمية

القرد، ومن حذاقة حركته الالية المنضبطة.. أشار إليه مشدوها كطفل صغير:

ـ يا لها من دمية، كأنه قرد حقيقي، كأنه حقيقي!

ضحك ثانية، ثم قطع ضحكته ووجم فجأة، متذكراً حياته الخاصة، فتهدل جسده، مطرقاً نحو الأرض، متحسراً على سنوات عمره التي ضاعت.. هز رأسه في أسى، نظر إلى الدمية من جديد، همس لنفسه:

ـ كأنه قرد حقيقي!!

سكت حيناً محملقاً، اغرورقت عيناه، استلقى على ظهره، سالت الدموع على وجنتيه، رأى سقف الغرفة يطبق عليه فلم يبال، وبقي ساكناً مستسلماً، يردد في صوت نائح:

ـ كأنني عشت.. كأنني عشت خمسين عاماً!!

آخر نمور السيرك!!

* نمور:

في إداء روتيني لا ينقصه إلا التثاؤب قفز النمر الأول مخترقاً دائرة اللهب، ليتبعه زميله الثاني ثم الثالث، والمدرب يستحثهم بصوته وسوطه، إلى أن جاء الدور على النمر الأخير الذي ظل قابعاً مكانه يشيح بوجهه بعيداً في غير مبالاة كأنه ليس جزءاً من اللعبة، نهره المدرب فزأر في وجهه، هوشه بالسوط فحاول إطاحته بيده اليمنى. . حملقنا جميعاً في ترقب، جامدين متوترين، متوقعين أن يثب الوحش على مدربه ويلتهمه في مجزرة مباغتة!. . لكنه في النهاية نهض على مضض وفي ضجر وقام بالقفزة في حنكة ودراية لا تقل عن أداء زملائه، فأرتاح الجمهور وعكس التصفيق شدة إعجابه!. . وشعرت أنا بالتعاطف مع هذا النمر!

تأملت دوائر المتفرجين، الأطفال أكثرهم انبهاراً، بيض شقر في ملابس زاهية، إيطاليون أحفاد قيصر ونيرون ودانتي وجاليليو وماركو بولو. تذكرت أنني في روما حيث جلسات الأسباكيتي والبيتسا

والنبيذ تجعل الناس أقرب إلى البدانة أميل إلى الكلام دون توقف وبسرعة رغم أن أبجديتهم تتكون من إثنين وعشرين حرفاً فقط!!.. لكنهم ظرفاء، إنفعالاتهم قريبة من إنفعالاتنا في مصر، والمدينة عريقة غنية بالنافورات والتماثيل والأطلال، وأنا تائه فيها وحيداً تاركاً «سهير» في لندن!!

بمجرد دخول المهرج سارع الأطفال بالضحك وضحكت معهم، وإتسعت إبتسامة الكبار، وبدأ العابه، وقهقهنا جميعاً وواصلنا الضحك حتى تعبت عضلات بطني وأغرورقت عيناي من كثرة ما ضحكت، من غير أن يتشاءم إنسان قائلاً: «اللهم إجعله خيراً» كما يفعل الناس عندنا، وكأن الضحك يجلب نقيضه من التعاسة، أو كأن إغرورراق العين يذكر بدموع الحزن!!.. رغم أن المصري يدرك فوائد النكات في تنشيط الدورة الدموية وفي هضم الوجبات العسيرة من فول وأزمات ومضايقات!!.. ولهذا حيرتني ظاهرة «اللهم إجعله خيراً» وبلبلت أفكاري من كثرة ما ترددت أمامي، ثم تولى أصدقائي المتزوجون إضافة المزيد من الأرتباك والبلبلة، ما إنطلقت مرة مقهقهاً بضحكة مجلجلة إلا وسألني واحد منهم دون مناسبة وفي نبرة أقرب إلى الغيظ:

ـ يا أخي لماذا لم تتزوج حتى الآن؟!

وهم لا يفاجئونني بهذا السؤال إلا عندما تملأ ضحكتي الهائلة أرجاء المكان!!.. مع أنهم عندما يجدونني تعيساً يفضحون أنفسهم

قائلين:

ـ لا تبتئس هكذا. من رأى بلوى غيره هانت عليه بلواه. أنظر لما نحن فيه من مشاكل تجد نفسك أفضل حالاً!

فإن كانوا صادقين في هذه المواساة فلماذا سؤالهم السابق؟!

مع تكرار فعلتهم بدأت أنتبه إلى أن المتزوجين بوجه عام قد أصبحوا أسرى علة خطيرة، مرض نفسي جديد تماماً على علم النفس.

* أكروبات:

ركزت أضواء السيرك إلى أعلى وبدأت ألعاب الأكروبات والترابيز، امرأتان ورجلان ولعبة أرجحة خطرة في الهواء حبست أنفاس الناس، ووترتني وكنت أريد إراحة الأعصاب فأخفضت عيني ولم أتابع.. ولعل سهير عادت الآن إلى برلين!!.. لكن إن صحت فراستي بالنسبة لأصدقائي المتزوجين فأنني أكون قد وضعت يدي على اكتشاف إنساني هام، وذلك مع بلوغي العام الرابع بعد الأربعين من عمرى العجيب!

ففي زمن قديم لا أعيه كانت الحياة أقل تعقيداً وأرخص سعراً وأوفر طعاماً، وأكد جدي في ثقة أن الأرض نفسها كانت أقل دوراناً!.. في ذلك الزمن كان الشاب الأعزب يحسد زميله المتزوج لتمتعه بالأستقرار وباللقمة الهنية والثياب المكوية وبالمرأة التي في

متناول اليد، كان هذا في زمن لا تصل إليه ذاكرتي، حكايات رواها جدي نقلاً عن جده سمعتها وتعجبت ثم انشغلت، مع العلم أن أسرتنا لم تمتلك في أي وقت أي مقياسا لسرعة دوران الأرض ! !

أما الآن فقد لاحظت أن الحال قد انقلب، وأصبح أي زوج يغار من أي عازب مثلي، ليست غيرة بدافع الخوف على زوجته من فتنتي كعازب أن كانت موجودة أصلاً، وإنما لمجرد أنني أتممت الرابعة والأربعين وأنا صامد لا أتزوج ! !

نوع جديد من الغيرة البشرية ينفرد بها الإنسان عن الحيوانات الأخرى، لأن الحيوانات الأخرى لا تعرف عقود الزواج والتمليك والبيع والشراء! . . وهي أيضاً غيرة عصرية تماماً من نتاج أزمات الإسكان وطوابير السوق ومسئولية تنشئة الأطفال الباهظة . . وهي لو كانت قديمة لما غابت عن فطنة كاتب ألمعي مثل وليم شكسبير، ولكان قد أفرد لها مسرحية مستقلة خاصة وأنه كتب عن كل شيء حتى العفاريت، كل ما أفلح فيه أن عالج شك الرجل في امرأته في مسرحية اسمها عطيل، ذلك الأفريقي الذي ابتلى بتلك الغيرة التقليدية التي عرفتها وأنا في صباي عندما أحببت ابنة الجيران سميرة البدينة . والتي عرفها كل رجل احتكر امرأة عن طريق كلمة أحبك أو عن طريق عقد زواج ودبلتين وقليل أو كثير من الذهب والأثاث . تلك الغيرة التي ظهر بسببها المبدأ البوليسي الشهير: «فتش عن المرأة» والذي يتردد كلما حدثت جريمة قتل أو سرقة، والمرجع في

ذلك روايات أجاثا كريستي وشرلوك هولمز وشريكه دكتور واطسن!! . . كما أن بعض الكتاب الآخرين تناولوا أنواعاً أخرى من الغيرة، مثل غيرة إمرأة شمطاء من أنيقة حسناء، مهرج سيرك من لاعب أكروبات، حاكم مستبد من مستنير ديمقراطي!!

أما غيرة المتزوجين من العزاب مثلي فهي اكتشافي الجديد الذي أقدمه هدية إلى السادة علماء النفس واثقاً من أنهم ببعض التنظيرات والاصطلاحات الغامضة سرعان ما يبتكرون منها ـ وبشغف ـ عقدة نفسية جديدة، تفتح لهم آفاقاً رحبة في مجالي العلم والرزق، تقف جنباً إلى جنب مع العقد الشهيرة البالية منها والعصرية، مثل أوديب ومركب النقص والانفصام والشعور بالتفوق! . . كما ألقيها على موائد الكتاب قماشة خاماً يحيكون منها قصصاً ينشرونها، ثم يمطونها على قالب الشد في بحبوحة من الاستطرادات على هيئة مسلسلات تليفزيونية للمتخلفين عقلياً، ثم يعودون ويحذفون الاستطرادات ليركزونها من جديد في فيلم سينمائي بالألوان والمايوهات والرصاصات وبعض المواعظ!!

* سحرة:

أخذوا يعدون الحلبة لفقرة الساحر، ودار بائع المسليات وبائعة المثلجات، وأخرج الكبار نقودهم ليدفعوا ثمن رغبات الأطفال!!

عجيب سلوك هؤلاء الأصدقاء الذي بلغ حد التآمر، يحدث مثلاً

أن أتلقى دعوة من أحدهم للغداء أو العشاء، أظنها دعوة كريمة فأذهب بحسن نية لأجد آنسة لا أعرفها مدعوة أيضاً، ولأجدهم يتعمدون تركي معها وحيداً لنتجاذب الحديث عدة دقائق يأخذني بعدها رب الدار جانباً ليسألني:

ــ ما رأيك فيها؟

ــ ظريفة.

ــ رائعة وملائمة لك تماماً.. ما رأيك؟

ــ ......!!

ــ هل أفاتحها في الموضوع؟؟

ــ عن أي شيء تتكلم؟!

ــ لا تدعي عدم المبالاة، لقد لاحظت نظراتك إليها، كنت تلتهمها التهاماً بعينيك، حتى زوجتي لاحظت ذلك!!

مؤامرات على شكل ولائم، وكنت أظن أنني مدعو لألتهام وجبة شهية!!.. لكنني قاومت دائماً وبصلف وإلى أن دخلت الصدفة منافساً لهم في التآمر!!.. سهير!!

من أعلى نقطة في خيمة السيرك هبط قفص كبير من سيقان معدنية تلمع في لون الذهب ليستقر فوق الأرض وليصبح نقطة التقاء دوائر العيون متدرجة الأرتفاع.. ومع ضجيج الموسيقى تهادت حسناء ممشوقة القوام مسحوبة الساقين واسعة العينين، تلألأت تحت أضواء الكشافات، تهادت وهي تحيي تصفيق الأطفال وإعجاب

الرجال وغيرة المترهلات، ثم إنحرفت جانباً لتعود وقد أراحت أناملها فوق كف رجل طويل في بذلة سوداء وحذائين لامعين، ودار الاثنان في خطو رشيق ودائرة الضوء تتابعهما، وأعلن مقدم السيرك أننا أمام أعظم سحرة القرن ومساعدته!!

من فوق علبة مبطنة بالقطيفة البنفسجية تناول الساحر عصاه الأبنوسية، وصار ينحني بمفرده للجمهور، وكان المفروض أن أتابعه لكني لم أتمكن من رفع عيني عن الحسناء، منبهراً بكل تفاصيلها، الوسط النحيل، الصدر الناهد في غير اكتناز، والشعر الذهبي، وافرة الحسن وجميع قدها يتحرك في تناغم وتماوج، ويشبه عودها عود سهيرا

أشار الساحر لها فدخلت القفص وأغلق عليها، إستأت لحبسها ثم زاد استيائي عندما غطي كل ذلك بعباءة سوداء لامعة غير شفافة انسدلت من أعلى فأخفتها تماماً، ومن خلفه أسرعت الموسيقى، وراح يؤدي بعض حركات الحواة وأزراره تومض تحت الأضواء، دار ثلاث دورات رشيقة من حول القفص محركاً ذراعية كمن يستلهم قوي غامضة، ثم وقف ورفع عصاه تأهباً، وللحال زاد صخب الموسيقى النحاسية ودوت الطبول بعنف شديد. ثوان قليلة وهبطت يده بالعصا لترتفع العباءة من فوق القفص، ولنجد مكان الحسناء أسداً قابعاً خلف القضبان!!

أسد حقيقي يهز رأسه قلقاً، حانقاً من الأضواء والضجيج،

ضجراً بهمهمات الدهشة التي صاحبت ظهوره والتي تستقبله ولابد كل ليلة!! . . ولكن أين المرأة؟!

بعد إنتهاء الأنبهار والتصفيق أشار الساحر إلى أعلى المدرجات، إلتفتنا جميعاً حيث أشار فإذا بالحسناء تهبط من هناك مع الموسيقى والأضواء والتصفيق المتجدد!

كيف حدثت الخدعة؟! . . القفص يعلو عن الأرض فوق أربعة قوائم رفيعة، فلا يمكن أن يكون الأسد قد دخله من خلال سرداب سري في باطن الأرض، كما أن قاع القفص ليس مسحوراً أي ليس به جزء خفي، حتى لو كان هذا موجوداً فمن المحال أن يسع أسداً فتياً في هذا الحجم!!

شعرت أنني أخذت على غرة وبوغت بالخدعة، وكنت أجلس في الصف السادس!! . . وسيطر على الأحساس بالهزيمة حتى خرجت إلى الشارع، فرحت أتسكع في طرقات روما القديمة، جو سبتمبر بديع، كأنه الربيع!! . . الشباب في كل مكان، من أهل إيطاليا ومن أنحاء العالم، أزواج وجماعات، أكاد أكون الوحيد بلا رفيق!! . . والبسمات والموسيقى تأتي من كل مكان، تمنيت أن تكون سهير معي، أحتوى كفها بكفي، أحيط كتفيها بذراعي . . خرير المياه . . بعد خطوات نافورة التمنيات الشهيرة، كل من ألقى إلى قاعها عملة معدنية وتمنى أمنية تحققت رغبته وبأصغر العملات، نافورة قنوع!! . . والناس من حولها وباعة السندويتشات

والمثلجات . . وبحثت في جيبي عن عملة صغيرة فلم أجد!!

* ملوخية :

ومن الساحة إلى طريق ضيق أقرب إلى الزقاق، البيوت العتيقة لها طعم خاص، المطاعم الصغيرة في كل مكان، الضحكات والنبيذ، الغزل والمكرونة، التسكع والبيتسا، والمسلات الفرعونية في معظم الميادين، أصلية أو مقلدة، متغربة مثلي عن أرض الوطن!! . . جلست مثل الآخرين تحت إحداها، على حافة الرصيف المحيط بها، تأملت البنات والنساء والأطفال، جئت من لندن مثل الهارب لتفاجئني الوحدة، تحادثت بالأنجليزية مع جارتي، عرفت أنني مصري فسألتني عن المسلة الشامخة من خلفنا، قلت لها أن الهرم الصغير أعلاها هو فقط الجزء المقدس منها أما الباقي فهو مجرد حامل لهذا الهرم، التفتت إلى المسلة برهة ثم ضحكت وقالت :

ـ يخيل لي أنها رمز جنسي!!

أدرت رأسي مأخوذاً أتأمل معنى قولها، شعرت بها تضحك وتنهض منصرفة، هكذا الحال في المدن الأوروبية، تعارف سريع ووداع أسرع، والزمن قصير بين تحية اللقاء وتلويحة الوداع! . . لكن سرعان ما انشغل مكانها بامرأة وطفلتها، ورحت أفكر في حيلة الساحر، كيف حل الأسد مكان المرأة؟! . . لكنني تنبهت إلى الطفلة تواجهني، ابتسمت لابتسامتها فدنت مني أكثر متوددة، تعارفنا وراحت

تنطق أسمي بصعوبة وهي تناديني به دون ألقاب، وكـان رنينه بـديعا على لسانها. . سمة ما بشخصيتي تجذب الأطفال نحوي، تجعلهم يبتسمون ويلعبون معي، حتى الخجولين منهم، وهـذا مـا لاحـظه أصدقائي واتخـذوه مبرراً لـدفعي إلى الزواج، غيـر أنني قاومت حتى الآن جميع مؤامراتهم وصرت آخر عازب في مجموعة الأصدقاء!! . . إلى أن تآمرت المصادفة معهم بمؤامرتين. .

المؤامرة الأولى حدثت خلال دعوة لأكل الملوخية منذ أسبوعين، وفي مدينة لندن، وكنت في زيارة لصديقين مصريين، زوج وزوجته، ووجدت عندهما آنسة لطيفة رقيقة، عندما تكلمت عرضت آراءها في هدوء يشف عن ثقة بالنفس وإحساس بالأستقلالية، وهذا مـا جذبني إلى سهير التي علمت أنها أخت الزوجة، وأنها في زيارة قصيرة لمدة أسبوع تعود بعدها إلى المانيا حيث تعد هناك رسالة دكتوراه، والغريب أنني لا أذكر بالضبط موضوع رسالتهـا هذه، وإن كنت أذكر جيداً أنها حدثتني عنها تفصيلاً!! . . كنت منهمكاً في تأمل ملامحها، عند النظرة الأولى بـدت لي ذات جمال عـادي، بعد التـأمل اكتشفت فيها فتنة آسرة وسحراً!!

أذكر أيضاً أن الملوخية أعجبتني جداً، أبسبب أنني أتـذوقها في بلد أجنبي أم لأن سهير كانت تشاركني الطعام؟! . . المؤكد أن الطبق الثاني أكلته بشهية أفضل ذلك لأنها هي التي دعتني إليه!!

رأيتها مرة ثانية ثم ثالثة، وبعدها شعرت بها تسيطر على أفكاري

فـأمتنعت، ذلك أنهـا لن ترضى بـالحب في تلقائيتـه وعفويتـه، وإنما ستصبو إن هي أحبتني إلى تقييده بذلك الوباء العالمي الذي يتمنى له العامة أن يكلل بالرفـاه والبنين!!.. من أجل هـذا سارعت بـالرحيـل عن لندن كلها متوجهاً إلى روما على أمل لقـاء صديقتي الايـطالية بخفة ظلها وأنوثتها الدافئة، لأجـد في انتظاري المؤامـرة الثانيـة، وكـأنني في حـاجـة إلى المـزيـد!!.. يـبدو أني صــرت أفضـل العـلاقات السـريعة، دون ارتبـاطات أو قيـود أو مسئـوليـات!!.. ولهذا بقيت آخر العزاب في شلة الأصدقاء!!

مللت جلسـة الرصيف متحـاوراً مع نفسي فنهضت، سـائـراً في طـريق العـودة إلى حيث أنـام، تـذكـرت من جـديـد لعبـة السـاحـر فاغتظت، كيف خدعني وخدع الجميع؟!.. وقررت أن أجلس الليلة التالية في الصف الأمامي.. وهذا مـا فعلته، الصف الأول، وجـاءت لعبة النمور، وقفزت تباعاً مخترقـة دائرة اللهب، ومثـل البارحـة تمرد الأخير وإمتنع عن الأنصياع. إنحبست أنفاس الناس في توتـر ورهبة، لكنـه وبعد أن عـاكس وزمجر لعـدة ثوان أنهى تمـرده وقام وقفـز!.. أيكـون دوره في اللعبـة أن يتصنــع التمـرد؟!.. سؤال حيـرني ولم يعجبني فـاستبعدتـه على الفور، أنـه يختلف عن باقي أقـرانـه مثلمـا أختلف أنا عن باقي أصحابي!!

ظهـر المهرج، ولم يضحكني، أنـه مثل النمـور المـطيعـة يؤدي حركات معادة!!.. وهو أيضاً مثل أصدقائي المتـزوجون ومؤامـراتهم

المتكررة، والسيرك مثيراً في المرة الأولى ثم يصبح مملا مثل الزواج بعد شهر العسل!!

أما المؤامرة الثانية فقد وجدتها مع وصولي إلى روما، لم أجد صديقتي الإيطالية، وكنت في أمس الحاجة إلى بسمتها ولمستها!!.. منذ سنوات كانت لي ثلاثة أفرع عاطفية في باريس ولندن وروما، ومنذ عام تحولت الإنجليزية من حبيبة إلى صديقة بعد أن تزوجت، ثم هجرتني الفرنسية بمجرد انجذابها إلى شاب أفريقي ممشوق في لون الشيكولاته القاتمة، قدمته لي في الصيف الأخير وكنت من الموضوعية بحيث التمست لها العذر ولم يكن بإمكاني غير هذا!!.. ومن قبلهما خسرت صديقة بولندية.. ولأن كل علاقة قابلة للتغير فقد راودت نفسي على ابتلاع تكرار الفقد.. ثم وصلت إلى روما مؤخراً لأفاجيء صديقتي فإذا بها سافرت إلى القاهرة، ربما لتفاجئني هناك في عيد ميلادي الرابع والأربعين، لو وجدتها لما انشغلت بالتفكير في سهير!!.. ولكن هل لتقدمي في العمر دخل في إغلاق معظم أفرعي العاطفية؟!.. سؤال أزعجني جداً!!

أخيراً جاءت لعبة الساحر، وجاءت عيناه في عيني لعدة ثوان، ومن خلفه تهادت المرأة الحسناء ودارت حتى صارت في مقابلتي ثم عبرتني بهالة سحرها، رأيتها عن قرب، بديعة لطيفة طويلة العنق رقيقة الشفتين غائرة الوجنتين، كأنها نفرتيتي رائعة الحسن طاغية السحر!!

مثل الليلة الماضية صعدت داخلة إلى القفص، ونـزل الوشـاح، ومع الضجيج الموسيقى بهرني إكتشاف غريب فيهـا، أظن أن عينيها قريبتا الشبـه من عيني سهير، خـاصة عنـد الالتفاتـة الجانبيـة، أيضـاً الشفاة عند بداية الأبتسامة. . أذكر أني ظللت أتابع شفتي سهير وهي تحدثني عن الأدب الألماني، وأذكـر أنها لاحـظت ذلك فـأفلتت منها بداية ابتسـامـة راضيـة جعلتني أغـوص في عمق عينيهـا مـع أنهمـا ضيقتـان، وتعلمت أن جمـال العينين يكـون فيمـا تشعـانـه وليس في اتساعهما أو ضيقهما. . ويبدو أن الرجل يظل يكتشف أموراً جـديدة في المرأة طوال عمره!!

علا تصفيق الجمهور من حولي، وأفقت لأجد أن الوشاح قد رفع وأن الأسد قد حل محل الحسناء، من غير أن أحـل اللغز، رغم أنني أجلس في الصف الأول!!

* استحواذ :

اغتظت من نفسي لكني قررت الحضور في الليلة التاليـة ولثالث مرة. . وهكذا غـرمت ثمن التذكـرة المرتفـع من جـديـد لأجلس في الصف الأول في زاويـة أخرى وبيقـظة تامـة، وتحملت تكرار ألعـاب السيرك، فلم تـوتـرني ألعـاب الأكـروبـات الخـطرة ولا المشي على السلك. . وعندما جاءت لعبة السـاحر قررت تجاهل المرأة، غيـر أنها عنـدما عبـرت أمامي كـان صدرهـا في مستوى نـظري، لهـا نهـدان متوسطان ربمـا أقرب إلى الصغـر، تمامـاً مثل نهـدي سهير، تمنيتهـا

الليلة الماضية في حضني على سريري بالقاهرة، سهير، ليس لفترة عابرة، ليس لمدة ساعة أو ساعتين أو حتى ليلة كاملة ثم تنصرف، إنما تبقي معي لوجبة الفطار والغداء وجميع وجبات الأيام التالية!..
أف!!.. كيف أفكر مثل المراهقين وأنا أتم عامي الرابع بعد الأربعين عاماً الأولى من عمري الفوضوي؟!.. إنها الوحدة ولا شك، لو وجدت صديقتي هنا لنسيت في حضنها جميع نساء الدنيا وسهير أيضاً!!

علا التصفيق الحماسي، وكان الأسد داخل القفص يزمجر في وجهي وعيناه في عيني أنا وعلى وجه التحديد!!.. خرجت حانقاً لأرتكب عملاً طائشاً، إذ درت من حول الخيمة، ثم تربصت عند الباب الخلفي الضيق، وعندما خرج الساحر والحسناء تقدمت منهما، رغم الظلام رأيت القلق في عينيه، ولمحت بسمة سريعة على جانبي شفتيها، سألته بالأنجليزية عن الحيلة التي يستخدمها، تجاهلني رغم يقيني من أنه فهمني ومضى بالمرأة في سيارته الفارهة ليزمجر المحرك وليبتعدا ! ! .. كيف تصورت أنه سيكشف لى عن سر اللعبة ؟ !

سرت أدق الأرض، أسمع خطواتي الحانقة، الأرض مثل الحواري العتيقة في خان الخليلي والحسين والجمالية، أهي زوجته؟! قد تكون.. ولكن ما شأني أنا ! !.. ثلاثة ليالٍ متتالية والأسد يحل محلها سجيناً داخل القفص لتتهادى هي من أعلى حرة طليقة!!.. وأنا عاجز عن حل اللغز!!.. لو ركزت!!.. لكني في

كل مرة أتخيل وجود تشابه بينها وبين سهير فيحدث الشرود!.. مع انها تواجه الجمهور بنظرات طاغية فيها قصد الأستحواذ بينما سهير لم تحاول الإبهار أبداً ونحيفة وضيقة العينين وعادية الجمال وشعرها قصير وأنا أحب الطويل!.. شيء يغيظ!!.. ولم تبذل أقل مجهود للأستحواذ!!..

لكنها استحوذت!!.. هل وقعت في غرامها؟! هل صرت أسير الحب ذلك الساحر الماهر، الساحر القادر؟!.. وهل النمر الأخير متمرد حقاً أم أنه يمثل دور المشاغب؟!.. سؤال حيرني من جديد، إنه بهذا يكون أكثر زملائه طاعة وتدريباً، ولعله يظن أنه متمرد!!.. شيء يدفع إلى الجنون: كيف يخرج الأسد من المرأة؟!

تلك اللمسات الصغيرة

- ١ -

لم يجد في جرائد الصباح ما يستهويه، ولم يطق المكوث في البيت وحيداً، فخرج ولم يكن مرتبطاً بأي موعد. .

في ميدان «تريمف» صادفه الدكتور حسن، لاحظ توتره فسأله. . زل لسانه وكان ينوي كتمان الأمر:

ـــ اليوم أتم الأربعين!

ـــ يوم ملائم لأن تتزوج

ـــ نصيحة طبيب؟؟

ـــ طبيب وصديق. . وعلينا أن نحتفل بك اليوم

رفض الفكرة مستنكراً: كيف يحتفل بفقد عام كامل من عمره الصغير؟!

ركبا معاً إلى وسط المدينة. . قبل أن يفترقا أعطاه الدكتور قرصاً صغيراً:

ـ ان جافاك النوم ليلاً ابتلع هذا، دقائق قليلة وتنام، وقد تحلم أحلاماً سعيدة

أخذه مبتسماً، ومضى وحيداً شاحباً، متسكعاً دون هدف، إلى أن شعر بالضيق، فوقف حائراً متردداً، ثم قصد كافيتريا «ل» متوقعاً وجود أصحاب له، متوقعاً موضوع حديثهم مسبقاً، حكاية جليسهم «ن» مع الفتاة «ز» (لم يكن قد كون رأياً بعد في الفتاة، وكان يرى أن «ن» معتل النفس). . بالفعل وجدهم ينمون في هذه السيرة، ربما هرباً من سيرة الشرق الأوسط وأزماته، وربما يأسا من عدم جدوى آرائهم!

فشل في الاندماج معهم. . طلب قهوة باللبن ـ اكتشف نسيان ساعته بالبيت ـ فكر أكثر من مرة في الانصراف ولم يفعل، وظل يؤجل، إلى أن دوى في المكان انفجار مهول وأصوات زجاج يتهشم، ثم هرولة الزبائن خارجين، فخرج مع أصحابه. . عرفوا أن أنبوبة بوتاجاز قد انفجرت، وشاهدوا نيراناً تشتعل، سرعان ما أخمدها العمال (ودهش وأصحابه لأن آلة الاطفاء الخاصة كانت صالحة للعمل!). . ثم تفرق الشمل. .

ـ ٢ ـ

وحيداً مرة أخرى، هائماً على غير هدى. . وجد «تاكسي» خالياً فركبه عائداً إلى مصر الجديدة. . في الطريق حدثه السائق

كالعادة عن أزمات المرور والاسكان وطوابير الخبز، حدثه أيضاً عن فساد الذمم.. شاركه ببعض الهمهمات، وأنظاره مشدودة إلى حسناء تحت العشرين، زادها صغر السن حسناً، لعله صار كبيراً على مثلها، لو قابلها في العمر الملائم لما تركها تفلت.. هز رأسه ساخراً، في بداية الشباب قابل من هي أروع ولم يطاردها (بل وربما هرب!).. ومنذ عامين فقط أحبته «مني» بجمالها وربيعها، ورغم انجذابه ظل يروغ منها، كان اتساع عينيها يربكه، فخاف من الوقوع في حبها، شعر بأنه لن يحتمل من جديد مضاعفات الهوى (شوق، غيرة عتاب، فرحة خفية، وجوم مبهم، وغض الطرف عن الأخريات!).. فلما ضاقت من تهربه، نظرت إلى بياض سالفيه وقالت منذرة:

ـ حذار، كن لطيفاً معي.. لن تجد من بعدي امرأة صغيرة تهتم بك!!

وها هو يتم الأربعين، وشيبه لا يجذب إليه سوى الصغيرات!! (وهذا بالطبع لا يضيره، لأنه على كل حال يعشق النضارة!).. لكن نبوءة مني بقيت عالقة في ذهنه وظلت تؤرقه!!..

ـ ٣ ـ

مع دخوله إلى المطعم بمصر الجديدة، شرد إلى الصيف الماضي، في هذا المكان كان يتعشى مع صديقته الإيطالية، تقربه

في العمر، ذكية ولطيفة، كان ينبهر بطريقتها في طلب الاشياء..
سألها عما تشرب، في البداية ترددت ثم تلفتت حولها وهتفت بدهشة طفولية:

ـ آه!.. كدت أنسى أن في الدنيا شيئاً اسمه البيرة، أريد بيرة..

تمنى لو كانت معه في هذه الأثناء، ينشغل بلطفها عن يومه الطويل هذا.. لكن لماذا يتهيب من هذا اليوم؟!.. أليس يوماً كباقي الأيام. له ليل ونهار وأربع وعشرين ساعة؟!.. ألأن الناس يظنون أن سن الأربعين هي فاتحة أمراض الشيخوخة؟! (ضغط دم، تصلب شرايين، سكر، وهبوط القدرة الجنسية!).. ألأن الأطباء ينصحون في هذه السن بالاقلال من التدخين والقهوة؟!...
شعر بأنه لن ينام ليلاً إلا بقرص صديقه الدكتور حسن، القرص المنوم!!

منقبضاً خرج من شروده ـ لاحظ عيني امرأة ترنوان إليه في اهتمام ـ نادى على الجرسون:

ـ زجاجة بيرة

مضى الجرسون، عاد يناديه:

ـ وفنجان قهوة سادة

ـ والبيرة؟؟

ـ أحضرها مع القهوة

شرب القهوة ثم بدأ يحتسي البيرة، وبعد الغداء سيدخن الشيشة، وليرى ما سيحدث لقلبه هذا (الذي ظل ينبض أربعين عاماً كاملة بنجاح ساحق!!)

جاءه الطعام.. ما زالت المرأة تنظر إليه، أنيقة الملبس، بديعة التجمل، على قدر واضح من الأنوثة، لكنها تقترب من الخامسة والأربعين!!.. شعر بصدره ينضغط، أهذا اذن نوع النساء الذي بقي له!!.. كاد رأسه ينفجر. فتذكر القرص المنوم. وقرر أن يغيظ المرأة ويبتلعه، كي ترى فارسها وقد غلبه النعاس وثقلت رأسه ونام على المائدة، فيخيب أملها فيه وتكف عن النظر اليه!!.. أحس بقطة المطعم تتمسح في ساقه ـ كره الاستجداء في عيني المرأة!! ـ مد إلى القطة قطعة لحم، شمتها ثم عادت تتمسح في ساقه.. تأملها منفعلاً، ليس الطعام ما تريد وإنما الحنان..

نادى على الجرسون كي يدفع، سيتغاضى هذه المرة ان غالطه في الحساب، لكن الحساب جاء مضبوطاً.. ترك بقشيشاً كبيراً ومضى، هو أيضاً لن يغالط الزمن!!.. رأى تجاعيد المرأة وهو ينصرف، تذكر أباه على فراش الموت.. تأمل متعجباً وجوه المارة، عاماً بعد عام يبدد الإنسان عمره، وعندما يظن أنه أنجز شيئاً يجد شبابه قد بدأ يولي!!.. أما هو فحتى هذا الوهم لم يشغل باله به!!

توجه إلى مقهى الشيشة، وجلس يدخن.. سرعان ما شعر بالسأم، ليس موعد التدخين فلماذا جاء؟!.. بعد تفكير تذكر، انما أراد أن يجرب قلبه!.. استصغر الفكرة ونهض سائراً. ثم استقل المترو إلى بيته.

- ٤ -

قشعريرة خفيفة!!.. لم يعجبه هواء الشقة، المرأة تمنح البيت رائحة أفضل، مزيجاً من هواء الطبيعة وعطرها ورائحة الطبيخ.. لماذا لم تشغله فكرة الزواج كثيراً؟!.. مرة واحدة أوشك فيها، وكانت «ميرفت».. أحب خفة ظلها وعودها، وعشق عينيها الواسعتين، كعيني أميرة فرعونية (الآن يعرف سبب ربكته من منى، لها شبيه عيني ميرفت).. منى اشتهاها فقط وأسف لفراقها، أما ميرفت فقد حلم بها واشتهاها معاً، ثم حدث اللبس وسوء الفهم وابتعد!!.. وها هو الآن حائر في شقته وحيد. لا يستقر في غرفة، لا تستهويه الشرفة، والذكريات تتزاحم، دون فعل أو عمل، فهل جاءه زمن الركود، يتحرك قليلاً ويشطح مع الذكريات كثيراً؟!

اتجه إلى المطبخ، ربما لأن الصداع هاجمه، ملأ براد الشاي بالماء، أشعل البوتاجاز، ثم سار إلى الشرفة.. نبح كلب الجيران فعاد يدخل (على غير العادة لم يستمع إلى نشرات الأخبار المختلفة، هذا يوم أزمته هو).. أمسك بمجلة يقلبها، ألقاها.. ثم

ارتدى «البلوفر» وخرج . . وسار طويلاً إلى أن استقر في مقهى الشيشة، فجلس يدخن وإلى جواره فنجان القهوة، وهو يأسف أشد الأسف لأنه لم يدع أصحابه يشاركونه ذكرى ميلاده!

ـ ٥ ـ

فجأة وهو يرشف القهوة تذكر أنه لم يطفيء البوتاجاز قبل أن يخرج!! . . هب مهرولاً إلى البيت . . في الصباح انفجرت أنبوبة في محل عام، والآن توشك أنبوبته الخاصة أن تنفجر!! . . أهذا يوم الانفجارات؟!

أدرك البيت وماء البراد قارب الجفاف، أطفأ الشعلة . . ثم عاد إلى شيشته بالمقهى، سلمت هذه المرة، وان حكاها لصديق فسينصحه بالزواج، وهو غير مضرب عنه، وانما الفرصة لم تأته بعد (عرف عدداً من الزوجات الخائنات، لكنه لم يسمح لنفسه بفقد الثقة في جميع جنسهن!!) . .

تنبه إلى الجرسون يضع أمامه قهوة جديدة، اندهش فهو لم يطلبها، ابتسم الجرسون:

ـ عوضاً عن القهوة التي تركتها وبردت . .

مجاملة صغيرة، ابتسم لها شاكراً وأشعرته بسعادة خفية، اعتبرها هدية عيد ميلاد دون علم هاديها . . أخذ يرشفها وعيناه على

الشارع، مع الرشفة الأخيرة كانت الكآبة قد عادت تقبض قلبه..
أدهشه حال المارة، سائرين، متلكئين، متصادمين.. والليل يهبط،
والسيارات من كل صنف، والبنات سعيدات بغزل الأولاد، والوجوه
أشكال وألوان.. وهذه شابة تنظر إليه طويلاً وكأن كفها ليست في
كف صديقها أو خطيبها السائر معها!!.. لماذا هن زائغات العيون
هذه الأيام؟! أم أنهن دائماً هكذا؟!... عسيرات على الفهم..
وهو في عمر الثلاثين صادق «سميرة» مصادقة كاملة، كانت تحبه
ولم تمنع عنه شيئاً (وفي أوقات بدت مجنونة به!!).. عرض عليها
الزواج، دمعت عيناها ثم لثمته:

ـ مثلك أنت أحبه فقط!

لم يفهم قصدها، وكانا عاريين فوق السرير!!.. وبعد فترة انقطعت تماماً عن زيارته، وعرف أنها تزوجت من سيارة أنيقة ورصيد شاب أنيق..

جاء صديقه الذي يعمل محققاً بالنيابة، ابتسم له مجاملاً مرحباً.. ثم طلب شيشة جديدة..

ـ ٦ ـ

حدثه وكيل النيابة عن آخر قضية يحقق فيها، جريمة قتل لحارس في مسرح فكاهي، أغتيل بعد منتصف الليل أمام زوجته

وطفلته، الملابسات غامضة، شهادة الزوجة تزيد البلبلة، والطفلة عاجزة عن الكلام ذعراً!!

أزعجته ضجة السيارات، ولم تشده التفاصيل.. مع دخان الشيشة الجديدة تشتت خواطره، كيف جاء الى هذه الدنيا؟!.. طبعاً في لحظات لقاء بين أبيه وأمه، فهل كانت متأججة بلهفة الحب ورغبته، أم فاترة بركود الزواج وألفته؟!.. لعل الملل أصاب والده ولم يجد ما يفعله في حر الصعيد سوى أن يجيء به (وهذا يفسر لماذا شب هو سريع الملل!!)..

سمع صديقه المحقق يقول مندهشاً:

ـ تصور!!.. لم تخرج الزوجة إلى طلب النجدة إلا حوالي العاشرة والنصف صباحاً!!

ـ وما الغريب في هذا؟؟

ـ يبدو أنك لم تركز معي..

انحنى يصلح من حجر الشيشة فوجد طفلاً على الرصيف يحملق مدهوشاً ويهم بلمس النار، حذره مبتسماً، احتار الطفل ثم سار خلف أبيه الذي ناداه.. تابع الطفل بنظراته، فلما التفت إليه مبتسماً شعر بأعصابه تسترخي، وبعاطفة مريحة تترقرق بداخله.. فجاءت أمه على باله، وتمناها على قيد الحياة.. كان وهو طفل بالصعيد يهرب منها ويتجه غرباً، حيث المعبد الفرعوني المتهدم، وحيث كباش الفجر

وماعزهم.. كان يحب اللهو مع الكباش. يتقافز من حولها، ويقع ضاحكاً عندما ينطحه احداها.. وكان كلما تأخر عن موعد الغداء ارسلت أمه من يحضره:

ـ الولد العفريت، ذهب ثانية يلعب عند الغجر.. كبش هو!!

أين ميرفت الآن؟؟.. هاجرت مع أسرتها إلى استراليا، لعلها تزوجت وأنجبت، لكم ندم عليها (لعلها أيضاً ترهلت!).. وهو الآن تؤرقه فكرة العودة إلى البيت الخالي، ويشعر بحنين إلى شباب منى وأنوثة الإيطالية.. معظم من صادقهن تبدأ اسماؤهن بحرف الميم، اثنتان بحرف الراء، واحدة فقط بحرف الهاء، وأخرى......

ولكن ما هذا الذي يفعله؟!.. أيعزي نفسه بما مضى؟!.. اجدى له الذهاب إلى البيت وابتلاع القرص، ثم النوم، وقد يحلم كما وعده الدكتور حسن.. وغداً سيكون بداية عام جديد في حياته، رضي أم لم يرض!!

ـ ٧ ـ

ركب المترو.. كانت به مقاعد خالية لكنه فضل الوقوف، راح يتأمل وجوه الجالسين، اجهاد اليوم يطل من عيونهم، والاحباط، عدا ثلاثة شبان يتحادثون بأصوات عالية.. وعلى مقعد قريب رأى رجلاً وزوجته وطفلة بديعة العينين، تعلقت أنظاره بها، كانت منشغلة بالتطلع إلى الطريق، وعندما التفتت ورأته ينظر إليها

خجلت والتصقت بأمها، احتوتها المرأة في حنان وأعطتها بسمة طيبة.. تشجعت الطفلة ورمقته..ثم عادت تلعب لعبة الخجل مرة ثانية وثالثة..

قبل أن ينزل كانت الطفلة قد ألفته، ومنحته ابتسامة وديعة ملأت قلبه بالسكينة.. فلما نزل إلى الرصيف اشرأبت من النافذة تلوح له مودعة، فلوح لها ضاحكاً، وظل واقفاً بابتسامة عريضة، حتى بارح المترو المحطة..

استدار إلى بيته، خفيف الخطو منتعشاً، سعيداً ببشاشة الطفلة وتلويحها.. دخل شقته وهو ما زال مأخوذاً بها، بحلاوتها وبراءتها، فوجد نفسه يتمنى لها ولوالديها السعادة والصحة.. خلع ملابسه وارتدى البيجامة.. ثم دخل السرير هادىء البال قرير النفس.. أطفأ النور، وسرعان ما نام دون معونة القرص المنوم.. لكنه حلم بطفل يشبهه، تسلل من وراء أمه بالصعيد، إلى أطلال المعبد القديم، رأى كباش الفجر فانطلق يلاعبها، كلما أوقعه جدي هب واقفاً مواصلاً قفزه من جديد.

* الديوك: (أقاويل وحكايات مروية):

في التاريخ المروي لأسرتنا: قيل أنني وأخي ولدنا في بطن واحدة، لا أقصد من نفس الأم وانما أيضاً في ذات الولادة، وهذا يعني أنه توأمي.. وقيل أيضاً أنني أرهقت أمي ارهاقاً قاسياً قبل أن أسلم قدمي اليسرى إلى الداية كي تسحبني إلى هذه الحياة، وأنني قد تفوقت على جميع الأطفال في مدى ارتفاع بكاء الميلاد، وأنه بمجرد سماعه لعلعت الزغاريد من جميع القريبات والجارات المتجمعات في الدار، وأن احداهن توجهت إلى النافذة وأخبرت باقي الجارات بأن المولود ذكر فأطلقن على الفور المزيد من زغاريد المجاملة، ثم اختارت المرأة أخف الأولاد اللاعبين في الشارع وأمرته بأن يسرع إلى أبي بالنبأ الميمون!!

قيل أيضاً في تاريخ عائلتنا الذي تناقله الرواة بأن أبي بمجرد رؤيته لدلائل الوضع عند الصباح ترك المال اللازم وغادر البيت مؤمناً بأن هذا اليوم هو شأن من شئون النساء، وجلس على مقهى الشارع

العمومي وقد استقر فكره على اسم لولد، وأيضاً على اسم لبنت نساه بمجرد أن عرف خبر مولدي، وهب نشطاً مسرعاً لتقييدي في سجلات الحكومة.. وبعد أن أتم ذلك اشترى بطيخاً وشماماً وتوجه عائداً به إلى الدار مطمئناً إلى نجاح جهوده في استمرار نسله، غير أنه ما ان وطئ عتبة الدار حتى جمد في مكانه مصعوقاً، توقع أن يسمع صراخ طفل واحد فاذا به يسمع صراخين!!.. وعلى الفور تأكد أنه قد بالغ بعض الشيء في جهوده من أجل استمرار الذرية!!.. وكان أخي خارجاً لتوه، ويبدو أنه لم يشأ أن يتخلى عني من لحظته الأولى، فهو ما ان سمعني أصرخ حتى انطلق يشاركني باقصى طاقته، وان كان صراخي قد سمعه القاطنون في البر الغربي فمن المؤكد أن صراخه قد عبر النهر إلى البر الشرقي!!.. وكان صخباً مروعاً شد انتباه كلاب الطريق فراحت تنبح متسائلة، وأقلق طيور السطح فانطلقت الديوك تصيح معلنة عن فجر قدومنا!!

هذا ما قيل وما تناوله الرواة شفاهة، الوقائع تؤكد أننا ولدنا معاً في ذات اليوم من نفس عام ١٩٤٦، وأنني لم أسبقه إلا بساعة أو أكثر بقليل، لكن السجلات الحكومية والأوراق الرسمية تقول غير ذلك، فالذي حدث أن أبي بالطبع لم يكن يتوقع قدوم توأمي، ولهذا لم يكن قد اختار له اسماً، فجلس يفكر وعندما استقر رأيه ونهض متوجهاً لتسجيله كانت مواعيد العمل الرسمية قد انتهت وأغلقت المكاتب أبوابها، فعاد أدراجه ولم يسجله إلا في اليوم التالي!!..

وهكذا صرت أنا لدى الحكومة أكبر من أخي بيوم كامل، وهذا ما كان له شأن كبير فيما تلا ذلك من أيام وأعوام!

* السكر (ذكريات مبهمة وغائمة):

وقيل أيضاً أننا كنا شديدي الشبه في البداية، وأن الكبار اتخذوا من هذا لعبة للتسلية ولاثبات قوة الملاحظة، لكن لم تمض سوى سنوات قليلة حتى وظهر الخلاف بيننا واضحاً، ورفض أحدنا أن يلبس مثل الآخر، وصرنا دائمي المشاكسة إلى درجة أزعجت أبي فراح يعايرنا ساخراً بأن قدومنا كان نحساً ونذيراً بقدوم الغلاء الفاحش، ولم نفهم وقتها شيئاً، ووجمنا وقد ظننا أننا ارتكبنا خطأ ما!!.. ورحت أفكر محتاراً في أمر والدي، فمنذ أيام سمعته يتحدث مع أصحابه من الرجال ويقول لهم إن العالم قد فسد بسبب فجر النساء، فالمرأة التي لم تكن تخرج من البيت إلا بالحجاب صارت تخرج من دونه، بل وتعمل مثل الرجال، ثم وصل التبجح ببعضهن إلى جعل أكمام الثياب قصيرة بحيث تظهر نصف الذراع وأحياناً الذراع كله!!.. أذكر جيداً أنهم أجمعوا على أن أفعال النساء هذه هي سبب خراب الدنيا والسر في الغلاء الفاحش الذي قفز بثمن الخروف البلدي الحي إلى أكثر من جنيه وأحياناً إلى جنيهين كاملين!!.. لماذا إذا يغير رأيه ويوجه الاتهام لي ولأخي؟!..

عندما عجزت عن حل هذا اللغز انكمشت وأخي في حضن أمي التي رمقته بنظرة متوعدة فسكت، لكنه بعد خمسة أيام عاد إلى تكرار اتهامه فما كان منها إلا أن لجأت بي وبتوأمي إلى عشيرتها!.. وقد أسعدنا هذا جداً، اذ رحنا نلعب مع الكباش والماعز، نتقافز معها، نناطحها وتناطحنا، نركبها فتلقينا أرضاً، ثم نتوجه إلى أطلال المعبد القديم ونستلقي نستريح في ظلال أصنام الفراعنة.. إلى أن جاء أبي وصالح أمي وعاد بنا بعد أن تعهد بعدم العودة إلى رمينا بتهمة النحس الجائرة!

وفي الطريق إلى الدار ظل صامتاً ثم هز رأسه ثلاث مرات أعلن بعدها وفي لهجة جادة تماماً أن السر الحقيقي وراء الغلاء الفظيع انما هو حرب فلسطين التي جاءت بعد مولدنا بحوالي العامين، وكانت هذه أول مرة نسمع فيها عن شيء اسمه حرب فلسطين أدى إلى شكوى أبي وإلى جعل السكر الأبيض المكرر يختفي من عندنا لنستعمل بدلاً منه السكر الأصفر غير المكرر!.. لكن سرعان ما استرد بياضه وكنا قد دخلنا المدرسة وعرفنا الكتب والمذاكرة ورهبة الامتحانات والخوف من الرسوب، وعندما كبرنا إلى الحد الذي يسمح لنا بارتداء البنطلون الطويل سمعنا من المذياع أن الملك قد طرد هو وحاشيته!!.. فجلست أنا وأخي نتحدث عن هذا الحدث، وكان أخطر ما شغلنا هو الرغبة في معرفة إن كان الملك قد أخذ معه تاجه الذهبي المرصع بالجواهر والماس والياقوت!!.. أذكر هذا

جيداً لأننا سألنا أبي عنه فضحك ثم قبلنا وخرج، وفي المساء عاد ليضع على رأسي ورأس أخي تاجين من الورق الملون بالأحمر والأزرق والأخضر، فرحنا بهما جداً، وبدأنا نتنافس على تقمص دور الملك، وانتهى الأمر بالتنازع عندما رفض أخي أن يكتفي بدور الأمير أو رئيس الوزراء، فتشاجرنا وقبل أن ننام كان التاجان قد تمزقا!!

* الملعب (ذكريات مبتورة غير مكتملة):

وكانت في أطراف البلدة أرض فضاء في اتساع ملعب المدرسة الثانوية تلاصقها أرض الكلأ المهجورة التي ترعى فيها كباش الغجر وماعزها، وكنا وأقراننا تعودنا على اللعب في هذه الأرض المهجورة، وذات نهار ذهبنا إليها كالمعتاد فوجدنا عدداً من الرجال يقيسون ويخططون فوقها، ظننا أنهم سيحولونها إلى ملعب حقيقي من أجلنا، غير أنهم جاءوا في اليوم التالي بعمال البلدية ومعدات الرصف لينشئوا في خلال يومين طريقاً من الأسفلت كطريق السيارات، ثبتوا على جانبيه رايات صغيرة وخفيفة، ثم أحاطوا كل الأرض بأسلاك شائكة لم نر مثلها من قبل في بلدتنا!!.. بالسؤال عرفنا أن هذه الأرض قد صارت مطاراً حربياً!!

وفي المساء عندما أنصت إلى حديث أبي مع أمي عرفنا المزيد عن تاريخ هذه الأرض كنا نجهله، قيل أنها كانت فيما مضى مطاراً

مدنياً لم يستعمل إلا مرة واحـدة، وأنه أنشيء خصيصـاً كي تهبط فيه طائرة الأميرة فوزيـة أخت الملك، وكانت قـادمة لحضـور زفاف ابنـة أحد أثريـاء المدينـة يحمل لقب بـاشا، وأن مـوسيقى فرقـة المطافيء النحاسية صدحت لها، وأن المأمور انحنى مقبلاً ظهر كفها!! . . وأن الطائرة وهي في سماء البلدة ألقت علباً صغيرة بها بعض الحلوى لم يقع أيا منها فوق سطح دارنا لسـوء الحظ، وان كان بعضهـا قد سقط فـوق النهر فـاندفـع الصبية إلى المـاء لالتقـاطها فغرق منهم ولدان وبنت!! . .

حذرتنا أمي من النهر لأن من عادته أن يأخذ إلى جوفه صبياً كـل عـام!! . . ثم تنهد أبي متحسـراً على الأميـرة فـوزيـة وعلى جمـالهـا وحسنها ورقتها وأناقتها وجمال عينيها مما دفع أمي إلى اتهامه بفراغـة العين والسذاجة، مؤكـدة أن جمال الأميـرة لم يكن طبيعياً وانمـا وليد المساحيق التي يحرمهـا عليها!! . . لكن الـذي أثار عجبي أنـا وأخي هو أن يقبل المأمور ظهر كف الأميرة!! . . وكنا لا نقبل إلا يـد جدنـا ولهذا تساءلنا ان كانت جدته!!

في الأيـام التي تلت ذلك انتقـل مكـان لعبنـا إلى أرض الكـلأ، حيث كنا نتسلق صخور المعبد الفرعونى ونجلس فوق أعلى بقعة فيـه نتفرج على مـا يحدث فـوق أرض المطار الجـديد في انـدهـاش بالغ، وتحدثنا بالطبع كثيراً عن الطائرات وغاراتها، وقـال أحد الأولاد إنه عندما تتقاتل طائرتان فان الطيـار الـذى يسبق فى تصويب بندقيته

إلى رأس الطيار الآخر ويقتله يكون هو المنتصر ! .. وأذكر أيضاً أننا رأينا القمر في السماء ذات صباح غريب مستديراً باهتاً رغم بزوغ الشمس، أشار إليه أخي وقال بأن الطائرة القوية يمكنها أن تعلو في الفضاء وترتفع مثل بساط السندباد السحري حتى تصل إلى هذا القمر، ومن هناك يستطيع الطيار أن يبول فوقنا لو أراد، فقفزنا إلى الأرض ساخرين من سذاجته لأن الوصول إلى القمر ضرب من المحال، وسحبناه من فوق رأس الفرعون وحملناه من يديه وساقيه وألقينا به وسط مجموعة من ماعز الغجر ونحن نضحك، فنهض يطاردنا لكنه تركنا لاهياً مع الكباش المتقافزة!

وفي أحد أيام عامنا العاشر عدنا إلى الدار من المدرسة لنجد أبي جالساً قرب المذياع الكبير يقلب في مؤشره بحثاً عن نشرات الأخبار. تأملني وأخي ملياً ثم قال في عطف:

ــ في عامكما الثاني وقعت حرب فلسطين، والآن تقوم حرب ثانية!!

هذه المرة لم يتهمنا بالنحس ولم يلق اللوم على بجاجة النساء، وانما أطرق مشفقاً ملقياً اللوم كله على «النصيب»!.. ثم أخذ يسعل، وكانت صحته قد بدأت تعتل، لكنه رفع رأسه في حزم ليمنعنا من اللعب ثانية قرب المطار بسبب هذه الحرب التي قامت!!.. قبل أن ننام همس أخي بأن «النصيب» هذا لابد أن يكون

ملكاً شريراً يتسبب فى الحروب . ولا أظننى قد وافقته على هذا ليلتها!!

لكن مخاوف أبي صدقت إذ جاءت طائرات الأعداء وألقت بقنابلها، فقتلت بعض الناس وتناثرت شظاياها لتصيب خمسة من كباش الغجر التي رأيت دماءها فيما بعد جافة فوق قدمي الفرعون الكبير!!..

ثم سرعان ما سمعنا في الشارع أن دولاً ثلاثاً تهاجمنا، ومن فوق فراش المرض أكد أبي أن هذه الدول هي فرنسا وانجلترا واسرائيل، عاد يسعل ثم تساءل ان كنا نقدر نحن الدولة الصغيرة على محاربة بريطانيا العظمى!!.. وغلبه سعال حاد!

* الأزمة (بعض الكوابيس المؤكدة):

لم تخلع أمي سواد الحداد على أبي إلا يوم تخرجي وشقيقي من الجامعة، فجأة رجعت إلى حيويتها لتطلق الزغاريد التي جذبت الجارات إلى دارنا والتي انتهت بتوزيع شربات الورد المعطر. لكن الفرحة لم تتم، اذ سرعان ما تم استدعاء أخي إلى التجنيد، ولم أستدع أنا لأنني أكبره في السجلات الرسمية بيوم كامل فأكون أنا رشيد الأسرة وعائلها من بعد رحيل أبي!!.. ومر عام تجنيده، وبمجرد قرب موعد خروجه وعودته إلى الحياة المدنية انهمكت أمي

في مهمة لم نطلبها منها، بدأت تبحث لكلينا عن عروسين، وهي مهمة عسيرة ولا شك، فمن الممكن تصور مدى حرصها مثلاً على اختيار فتاتين متقاربتين من شتى النواحي كي لا يشعر أحدنا بالغيرة ان هو وجد أن عروسه مثلاً تقل في الجمال أو خفة الظل أو الارث عن عروس الآخر!! . . وعبثاً حاولنا افهامها بأن كل واحد سيتزوج بالطريقة التي تريحه وعلى مسئوليته الخاصة!!

ومرة أخرى فان الفرحة لم تتم، اذ توقفت أمي تماماً عن محاولتها بفعل طارىء خارج عن ارادتنا، وذلك عندما زج بأخي فجأة إلى سيناء في حرب سميت في مصر باسم مخفف: نكسة يونيو ١٩٦٧، وفي البلاد العربية حزيران، وعند البلاد الأوروبية حرب الأيام الستة، التي ملأت بلدتنا بالمآتم وجاءت بالأعداء إلى مياه قناة السويس، وأدت إلى اهتمام أمي بسماع نشرات الأخبار، على أمل ان تسمع فيها شيئاً عن مصير ولدها الذي تأخرت أوبته، والذي مضت أيام انتظارنا له متثاقلة ونحن لا نعرف ان كان قد مات أو ما زال حياً أو سقط أسيراً، ولم يكن هناك من المسئولين من يعرف كيف يدلنا!! . . كانت أيام الارتباك الشامل وتصفية الحسابات والقاء الاتهامات والتنصل من المسئولية!!

انهالت دموع أمي، وظلت حالتها تسوء إلى أن حدثت المعجزة وعاد إلينا ذات يوم حار رطب من أيام يوليو، منكس الرأس زائغ النظرات رث الثياب، ظهر على باب الدار مثل شبح تأكد في وضح

النهار، استقبلته أحضان أمي باللهفة والحنان، وذبحت له البطة المسمنة!! . . إلا أنه ظل ممدداً على السرير محتقن العينين، ولاحظت أنا أن بطني قدميه متشققتان مثخنتان بالجراح، ولم أشأ أن أسأله عن كيفية عودته، عن طريقة اجتيازه صحراء سيناء العارية، عن وسيلة عبور قناة السويس من الشرق إلى الغرب، ثم وصوله إلينا!!

أيام قليلة والتأمت جراح قدميه، إلا أن جراح كبريائه بقيت تنضح عليه، وكثيراً ما كان يهب فزعاً من نومه، فمكث قابعاً في غرفته يخجل من مواجهة الناس!! . . ولأن لكل حال نهاية فسرعان ما تماسك وعاد إلى وحدته وجيشه الجديد، وودعناه أمي وأنا والجيران بالدموع والأمل!

بعد رحيل قطاره سرت هائماً إلى أن وجدت نفسي على شاطىء النيل، حيث جلست هناك ساكن الجسد مبلبل الخاطر بالتوتر والغضب، يبدو أن أبي كان محقاً في اعتقاده بسوء حظنا ونحسنا، ويبدو كذلك أن هذا العالم غريب، كبير وضئيل، مترابط ومتنافر، سعيد ويائس. . وكل حدث فيه ينعكس على سائر الناس!! . . صرخت وأنا أنظر إلى الضفة الأخرى حيث قبور موتانا: ما ذنب أخي ما ذنبه؟؟ ما ذنب جيلنا كله؟! . . وقتها أيقنت أن أموراً كثيرة يجب أن تتغير ووجوهاً عديدة عليها أن تزول، كي نمحو هزيمتنا السوداء!! . . لكننا بدلاً من ذلك فوجئنا بمن يسميها «أزمة الشرق الأوسط» . . فأدركنا أن الأمر سوف يطول. . وفي الحقيقة لم تكن

هذه الهزيمة سوى هزيمة شخصية لأخي وأمي ولي ولجميع أصحابنا ومعارفنا، ومن كافة الجوانب!!

* الستة (اليقين والصعود إلى القمر):

مرت الأيام بالمرارة، وتعاقبت الأسابيع بالتثاقل، وتجمعت لتكون ست سنوات طويلة كأنها ستة قرون، تعادل ربع عمري أو عمر توامي تقريباً!.. وقد سمعنا خلالها سماجات لا حصر لها ومنغصات لا آخر لها، وظلت رغبة أمي في تزويجنا رغبة معطلة وقد صار جميع شعرها أبيض اللون!.. كما وقعت أمور عديدة لاهشة، بعضها كان واضحاً ومعظمها كان مموهاً، ففيها صار اهتمام أمي بنشرات الأخبار اهتماماً محموماً وقد أيقنت بشكل غريزي أن ما يحدث في الخارج له علاقة بنا وبشكل أو آخر.. وعندما سمعت ذات يوم أن مناورات مشتركة تدور بين الأسطول السادس الأمريكي وبين طيران وبحرية العدو انقبض قلبها وراحت تضرع إلى الله أن يحفظ ابنها وأبناء مثيلاتها!

ستة أعوام زاد فيها عمر البشر ست سنوات حدثت فيها ملايين الوفيات والولادات والقبلات والأكاذيب والخيانات والأعمال الطيبة، ودك العدو مدن القناة الثلاثة وحرق معامل بترول الزيتية وأغار على عمال أبي زعبل وأطفال مدرسة بحر البقر، وعلى الناس في سوريا

ولبنان والأردن، وعلى المطار عند أطراف بلدتنا حيث قتل للمرة الثانية بعض كباش الفجرا . . وزاد الضغط على الأعصاب حتى قارب الانسان أن يصاب بضغط الدم أو بتصلب الشرايين!! . . وفيها أيضاً مضت خمسون عاماً على ثورة ١٩١٩ وحدث ما لم نكن نصدقه ونحن صبية اذ صعد الانسان إلى القمر لأول مرة حيث وصفه رائد الفضاء انه كشاطىء رملي قذر عليه آثار أقدام ضخمة وتنتشر فوقه الفوهات البركانية والجبال الوعرة، وبهذا لم يعد من حق الرومانسيين أن ينعتوا المرأة الجميلة بأنها تشبه قمر ١٤!! . . وفيها قرأت أن عالم المصريات ايمري واصل تنقيبه ربما للموسم السادس على التوالي في محاولة لاكتشاف مقبرة ايمحوتب الذي كان من عامة الناس ثم رفعه الأسلاف فوق مرتبة الفرعون إلى مرتبة الآلهة لنبوغه في العلم والطب!!

وفي خلال هذه الأعوام الستة كذلك نفد صبر الناس وعلى الأخص الشباب والطلبة، كما استفاد بعض الانتهازيين من ظروف الركود وأثروا في السوق السوداء، وانتشرت الأفلام الرديئة والفجة، وشاهد أخي في إحدى أجازاته القصيرة فيلماً قال أنه تافه ويعكس التفسخ الذي حدث للناس من فعل الهزيمة، كما حدثت اشتباكات عديدة على جبهات القناة والجولان وربما الأردن، وقامت دولة جديدة سميت بنجالاديش، وانتشرت موضة النساء القصيرة جداً التي لو رآها أبي لمات من جديد، ثم موضة الملابس الطويلة جداً،

وسمعت عشرات النكات!! . . وفيها قال لي أخي أنه قرأ عن اكتشاف عالم ايطالي يقول فيه بأن الحب هو خير عقار ضد تصلب الشرايين، ولهذا فان أخي قد وقع في حب فتاة تسكن في شارع «ابن خصيب» وتعمل مدرسة، وكان وجهه محمراً وهو يخبرني بذلك، وهي التي تعيش في دارنا منذ أن تزوجها في شهر فبراير من عام ١٩٧٣ لتنتقل إلى دارنا كواحدة عزيزة من أسرتنا، ولم يمض سوى شهر او أكثر إلا وبدأت بطنها تنتفخ بجنين من أخي!!

وقد كنا في المساء وهي تتحسس بطنها وقد وشكت الولادة عندما علمنا بشكل مفاجيء أنه قد تم عبور قناة السويس، وكان ذلك في يوم ٦ أكتوبر على وجه التحديد . .

في ست ساعات تم العبور المستحيل فدبت الفرحة في أوصالنا، ورحنا نتأمل رقم الستة وكم لعب في حياتنا!! . . ورحنا نتباهى بأنه ان كان العدو قد كسرنا في ست أيام فقد دحرناهم في ست ساعات أي في ربع يوم فقط!! . . لكن دعاء أمي لأخي ورفاقه أن يعودوا سالمين لأمهاتهم وزوجاتهم جعلني أكف عن الكلام المسموع وأنزوي متسائلاً: هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟؟ . .

انتهى الأمر وعاد أخي وأصبح أباً، وسرقت طفلته اهتمام الجميع . . ومنذ أيام استرجعنا ذكريات السنوات الأليمة، فشعرت بانقباض خفي، في الحروب يبكي المهزوم ويستذل، أما المنتصر فمن حقه الزهو والابتهاج، لكن فرحته تكون غارقة في دماء غزيرة

ولهـذا تكـون نـاقصـة، ولعـل ذلـك هـو علة انقبـاضي، ولعله عـدم الاطمئنان بأن الأمـر انتهى بالفعـل!!.. وربما كـان السبب هو دعـاء أمي كلمـا رأت أحـد الجنـود بـأن تكـون الحـرب الأخيـرة هي آخـر الحـروب، تلك الحـرب التي مـلأت حيـاتي وأخي وجيلنـا كله منـذ ولدنا، بحيث صارت تشكل ذكريات لا تنسى، هي من أخص شئوننا العائلية، فهل تكون حقاً آخر الحروب.

* ارتعشت ساقاه، أحس بجسده يزداد ثقلاً! . . لم يشعر بمثل هذا من قبل، حتى وهو تحت الخطر واحتمال الرحيل المفاجىء! . . ارتمى على مقعد بالمقهى الصغير، جلس شارداً، بارد الأطراف، زائغ العينين لا يكاد يرى . . ملأته رائحة الشارع: مزيجاً من روائح القهوة والطبيخ والرطوبة ـ ورائحة ورنيش قريبة ـ والشيشة والشاي والخبز . . ورائحة الورنيش ثم سأله ماسح الأحذية:

ـ تمسح؟

نظر إلى الصبي دون تركيز، جميل الوجه رغم شحوبه، وفي عينيه نضج مبكر، جلس دون انتظار جوابه، رافعاً إليه نظرة، مبتسماً في رجاء، واثقاً من موافقته . . فمد له قدمه، ثم حاول شغل نفسه بتأمل الشارع . .

اتسعت عيناه، هنا عاش سمير، شب ونما ـ دوار خفيف ـ وهذا شارعه، يراه، يسمعه، ويشمه . . بيوت متلاصقة، شرفات متقاربة، بائعة خضروات ممتلئة، ترزى القمصان . كرة صغيرة يتقاذفها الأطفال، وفرن العطفة . . بعده بيت سمير، لا يعرف رقمه، فوق بابه

تمساح محنط لجلب الحظ. . وهناك أمه بوجهها الطيب ونظراتها الحنون. .

دق الصداع رأسه، وسمع الماسح يقول:

ـ ثلاثة من شارعنا هذا معك.

ـ معي أين؟

ـ في الجيش، هل تعرفهم؟

ـ الجيش كبير جداً.

ـ واحد منهم يسكن هناك، طويل وله شارب سميك ألا تعرفه؟

ـ اسكت وانجز شغلك. .

تزاحمت أصوات الشارع في أذنيه، ماكينة الخياط، ترانزستور بائعة الخضروات، مواء قطة المقهى، صياح صبية الكرة، وصوت الصبي يسأله:

ـ هل أنت مسيحي؟

ـ لماذا تسأل؟!

ـ لأن الثاني مسيحي، يسكن بالبيت الذي تقف أمامه «أم سالم». . هل تعرفه؟. . ألست بالجيش؟

ـ من أم سالم؟

ـ بائعة الخضروات.

ـ لماذا لا تنتهي من المسح؟

ـ حالاً. .

فكر أن ينهض منصرفاً، لكنه شعر ببعض النظرات تحتويه في ود، هل يعرفون أنه صديق سمير وزميله في ذات الموقع؟.. أم لأنه ما زال بملابس الميدان وغبار الجبهة، وبالعرق تحت ابطيه؟.. قبل أن يذهب إلى بيته جاء بالحزن، بعبء الخبر، بعهد تبادله مع سمير: إذا أصيب أحدهما تولى الآخر ابلاغ أهله!!

صاح ماسح الأحذية:

ـ الثالث هو الأستاذ سمير، ألا تعرفه أيضاً؟!

ـ اسرع ولا تثرثر

صمت الصبي حيناً.. ثم عاد يقول:

ـ أمه طيبة جداً.

ـ من؟

ـ الأستاذ سمير، اشترى لها الخبز كل صباح.. ويوم الثلاثاء الماضي تغديت معها، أرز وسبانخ ولحمة ثم شاي.. قبل أن أجلس إلى السفرة جعلتني أغسل يدي.. طبيخها لذيذ جداً، وأنا أحبها.. وغسلت يدي بعد الأكل أيضاً.. ألا تعرف ابنها سمير؟!

* * *

من تحت التمساح المحنط دخل البيت، درجات قليلة وكان يلهث منفعلاً!!.. وقف يتمالك نفسه، لن يدخل الشقة، سيلقي بالخبر من على الباب ويهرول هابطاً..

شد طوله، وعاد يصعد الدرج. . أمام باب الشقة تهدل كل شيء، عاوده الدوار الخفيف. . نظر إلى ضاغط الجرس، بدأ يرفع أصبعه نحوه، انهارت يده، حاول ثانية وفشل، ثم لمسه وسمع رنينه في الداخل. . انحسرت الدماء من وجهه. . انصت مترقباً. . سيقول لها: «البقية في حياتك، ابنك مات» ثم يهرول هابطاً. . أنهكه الترقب. . الأكثر رقة أن يقول: «ابنك استشهد» ثم يهرول هابطاً. . كلمة الموت كلمة قاسية!!

سمع خطواتها تقترب، زاغت عيناه، قرر الانصراف والهرولة هابطاً. . لكنه رأى الابتسامة وشم رائحة الطبيخ. . انشق الباب عن لهفة الأم، عن بسمة طيبة. . اتسع على خيبة أمل لحظية، على رمشة عين متوجسة!. . ثم عادت البسمة، وامتد كفها مرحباً:

ـ أهلاً يا ابني. . أهلاً وسهلاً. . تفضل

سحبته ليدخل فانقاد إلى مقعد الصالة، مستسلماً. . أغلقت الباب سعيدة به:

ـ في البداية ظننتك «سمير»، عكس الزجاج المصنفر لون ملابسك فطار قلبي فرحاً، كنت أفكر فيه لحظة رنين الجرس. .

ظل خفيض العين. . جلست قريبة منه:

ـ تحمل رسالة منه، أليس كذلك؟؟. . لماذا لم يأت معك؟!

تداخلت نقوش السجادة القديمة. . نظرت إليه ملياً:

ـ اختلفت اجازتكما، أليس كذلك؟؟

ـ نعم اختلفت

رمقته فاحصة:

ـ لست كعادتك هذه المرة!!.. أهو الارهاق؟؟

ـ نعم نعم.. صداع!!

ـ عندي بن بالتحويجة..

ـ لا، شكراً..

ـ لابد أنك جائع.. كيف لم أفطن إلى هذا؟!

ـ لست جائعاً

ـ بل جائع وشاحب وصوتك هفتان.. حظك من السماء، كدت أنتهي من اعداد الطعام..

ـ شكراً شكراً، الوقت ضيق

ـ لن تنزل قبل أن تذوق طعامي.. لكن لون وجهك لا يعجبني، لعلك لم تنم جيداً؟!

ـ فعلاً.. لم أنم الليل كله!!

ـ هكذا اذن.. طعامي صحة وعافية، بالسمن البلدي أطهيه..

نهضت:

ـ قلبي معكم يا اولادي، صباحاً ومساء أدعو لكم بطول العمر والسلامة، من أجل أهاليكم يا حبيبي!

رأى حركة قدميها، رآها تدخل المطبخ، أراد أن يهتف عالياً:

ـ من فضلك لا أريد، سارحل فوراً

لكن صوته خرج مرعوشاً.. وسمع خطوها بالمطبخ، وغطاء الوعاء يرفع ثم يعود إلى مكانه، وسمع اصطكاك بعض الأطباق.. وسمع أيضاً صوتاً واضحاً:

ـ كيف حال سمير؟؟

لم يجد ما يقوله.. لام نفسه لأنه دخل!!.. كيف يتصرف؟!.. احتارت نظراته بين السجادة وباب المطبخ، ثم استقرت منكسة، تداخلت نقوش السجادة، قديمة ومتماسكة، مؤكد أنها من عمر الأسرة، وأن سميراً حبا عليها وهي جديدة، ثم وطأها مئات المرات وهو يكبر.. مؤكد أنه سار عليها عند خروجه لآخر مرة، وانها كانت إلى جواره تودعه!!..

شعر بغصة، رفع رأسه يمنع الدموع، رأى صورته تتموج، على الحائط داخل الاطار.. ضغط جفونه يطرد الدموع، مد يده يخرج المنديل، وصورة والده الراحل، مات سمير صغيراً، فربته أمه وأخوه الأكبر، تزوج الأكبر فعاشت لسمير، والآن لمن؟!

غلبته الدموع، سارع بالمنديل الى عينيه، سمعها قادمة، رأى طبق الأرز يوضع أمامه.. لمحت منديله، ضربت على صدرها:

ـ أكنت تبكي؟!

ـ لا طبعاً. . لا

ـ أراك مضطرباً؟؟. . لماذا؟. . قل. .

ـ كنت أمسح غبار الطريق. . وعرقه. . طبعا. .

جمدت برهة ثم توتر صوتها:

ـ منديلك متسخ جداً، كيف تمسح به عينيك!!

[كاد يجهش صارخاً، تمنى لو وقف وانصرف وهرول هابطاً. . لكنه عجز عن النهوض، وشعر بالمنديل ينجذب منه:

ـ سأغسله لك

ـ لا شكراً. . لا. .

ـ أفعل هذا لسمير، وأنت مثله. .

ـ سأغسله مع ملابسي في البيت.

ـ أحب أن أفعل هذا

ـ أرجعيه. . شكراً شكراً.

سارت إلى المطبخ:

ـ قبل أن تنتهي من أكلك أكون قد غسلته، وسيجف بسرعة وأنت تشرب الشاي، الشمس حامية. .

سمع الماء في المطبخ سمعها أيضاً تسأل:

ـ كيف حال سمير؟؟

حملق إلى الأرز أمامه. . جاءت بطبق الخضروات. . قال:

ـ المنديل من فضلك

ـ نقعته في الماء والصابون. لماذا لا تأكل؟!.. البيت بيتك. كيف حال سمير؟؟.. ماذا جرى لي؟؟ نسيت كوب الماء!!

نهضت تحضره.. تأمل خطوها البطيء.. لماذا؟! لماذا يخبرها اليوم؟!.. لن يخبرها.. لماذا يعجل بحزنها؟!.. ابلاغ الجيش لن يصلها قبل عدة أيام، فلتعش هذه الأيام دون بكاء.. كان عهداً غبياً عهده مع سمير!!.. لن يبلغها، وسيتظاهر بأنه يأكل، وسيرد على سؤالها بأن سمير في خير ويبلغها التحية والشوق..

هدأ قليلاً.. ثم عاد يرتجف مع ظهورها.. وضعت الكوب أمامه، وجلست تتفحصه:

ـ شيء ما يشغلك!!.. قلبي يحدثني.

ـ أنا؟!.. لا شيء!!

ـ يقلقني ما أراه في وجهك!.. كيف حال سمير؟؟

ـ كنا في سيرتك منذ يومين، نعم منذ يومين... صحا من النوم هاتفاً: «حلمت بأمي»..

ـ حبيبي يا ولدي.. لماذا لم يأت معك؟؟

ـ اطمئني.. هو بخير..

ـ سألتك لماذا لم يأت معك؟؟

بلله العرق، مد يده يبحث عن منديله.. لاحظت ارتباكه، رأت

رعشة أنامله. . ارتجف قلبها، احساس مبهم يقبضها!!. . لكنها نهضت:

ــ سأنشر منديلك حالاً

توجهت صوب المطبخ ثم غيرت سيرها صوب غرفة النوم، احضرت منديلاً مكوياً:

ــ استعمل هذا إلى أن يجف منديلك. .

مؤكد منديل سمير، مؤكد. . وكادت دموعه تطفر. . ولكن لا، يجب أن لا تراه يبكي، الجندي لا يبكي، لا يبكي لأنه يرى الموت كثيراً!!. . ارتعش الكوب في يده. شرب يبتلع غصته. . يجب أن لا تراه يبكي، وسيبتسم، بتماسكه يمنحها أياماً دون بكاء. . .

بقي ناظراً إلى باب المطبخ، إلى أن خرجت بائسة النظرة، في يدها المنديل المغسول، رآها تنظر للأطباق الممتلئة. . التقط الملعقة يأكل، لكن وجهها كان قد تكدر وقد عاودها الاحساس المبهم، اقتربت تستجوبه:

ــ لست جائعاً اذن؟؟

ــ بل جائع جداً

ــ لماذا لم تأكل؟!

ــ كان ساخناً

ثم بدأ يأكـل. . بقيت ترقبه وفي رأسها فكـرة تنبت!!. . تجنب النظر إليها:

ـــ لذيذ جداً

الضباب يشل تفكيرها، لم تتحرك. . افتعل ابتسامة:

ـــ لذيذ جداً جداً

سمعها تتحرك. . تتجه إلى الشرفة. . لا يمكن أن ينتظر جفاف المنديل، لن يحتمل، سينصرف على وعد بزيارة أخرى. . يقول لها: «سوف أمر قبل عودتي إلى الجبهة». . ويقول لها: «يقيناً سوف أمر، آخذ المنديل وآخذ رسالة إلى سمير». . ويتركها تعيش ساعات اخرى بلا دموع. .

* * *

. . . في الشرفة وهي تعيد عصر منديله، وهي ترى القطرات تتساقط، عذبتها الهواجس، ليس طبيعياً صاحب سمير، يخفي خبراً سيئاً!!. . فردت المنديل، بل هي تتوهم بسبب شدة قلقها، ليس طبيعياً لأنه مرهق منهك. . مالت تنشر المنديل، فجأة تفجر الاحساس المبهم!!. . استرجعت حاله منذ جاء، قلقه، عذاب وجهه، هروب نظراته. . ليس طبيعياً هذه المرة. . عرقت، غام الشارع في عينيها، استعادت صوته المنكسر، نبراته المهتزة، كلماته

المبتورة. . تذكرت لمعة عينيه، ودموعه، فتجلت الفكرة، وتأكد الاحساس، وانقضت على الفور داخلة:

ـ ماذا حدث لولدي؟؟

بوغت بالسؤال، فوجيء بها أمامه!!.. نظراتها ترجوه تكذيباً، وجهها يستجديه انكاراً.. ظل صامتاً لا ينطق!!.. ورأته يجمد دامع العينين، محملقاً مصعوقاً، ودموعه تنسال غزيرة!!.. شهق.. ترنح، فسارعت تأخذ رأسه في صدرها، تستند عليه، وجميع جسديهما يبكي.

أمام باب حديقة الحيوانات نزلوا كالعصافير، في الزي المدرسي الأخضر، لون واحد للثياب، وألوان متعددة للشعر، من الأبيض الثلجي إلى الأصفر الناصع إلى البني فالأسود . .

وقفت المدرسة تتمم على أطفال الرحلة، عشرون ابتسامة بريئة ساحرة، لعشرين طفل وطفلة، بهجة غامرة ولهفة على مشاهدة حيوانات الغابة الحبيسة . . .

دفع الطفل الأول بيديه الباب الدوار، فدار حول محوره نصف دائرة، كانت كافية لأن يجد نفسه داخل الحديقة، فوقف مشدوهاً مصفقاً، فخوراً بما فعل . . ثم تبعته طفلة ما أن دار الباب معها نصف الدورة حتى طارت من الفرحة متقافزة نشوة . . ثم ولدان فطفلة . والباب يتجاوب تحت دفعات أيديهم الرقيقة . . والمدرسة تشجعهم وتستحثهم . .

عن قرب وقفت صغرى البنات تحملق شغفاً، مأخوذة بما ترى، في سكون المنبهرة، لا تهتز ضفيرة شعرها الناعم من خلف ظهرها،

ترقب فاغرة الفم كيفية دخول الاطفال، طريقة تشغيلهم الباب الدوار العجيب، كأنها ترى سحراً خارقاً للعادة!

عندما شعرت بأن دورها قد حان توترت وزاد خفقان قلبها، تأهبت ثم تقدمت في تحفز، ملهوفة إلى أن تفعل مثلهم. . رأتها المدرسة تخطو مثل قطة صغيرة، بفم كثمرة الفراولة، وشريط أحمر عند ذيل الضفيرة، فاندفعت تداعبها، وقبلتها مراراً، ثم حملتها من تحت ابطها إلى الهواء، كريشة خفيفة، لتدخلها عبوراً من فوق السور الحديدي . .

فجأة وجدت الطفلة نفسها فوق أرض الحديقة، من غير أن تدفع الباب، من غير النصف دورة، من غير العملية السحرية الخارقة للعادة!! . . لم تعجبها هذه الطريقة الشاذة، وعلى الفور اهتزت ضفيرتها في عنف، وهي ترتجف حنقاً، وتنفجر صارخة محتجة!! . . وجم الأطفال وحملقوا منزعجين!! . . نزلت المدرسة على ركبتيها، كلمتها من خلال قضبان الباب، تسأل في قلق:

ـ حبيبتي، عصفورتي، مذا أبكاك؟! . . ماذا أغضبك؟!

قطعت الطفلة صراخها، نهنهت بكلام عصبي غير مفهوم، وصدرها يرتجف . . بعد أن هدأت سمع الجميع مطلبها:

ـ من الباب مثلهم، أدخل من الباب مثلهم . ليسوا أحسن مني!

إتسعت عينا المدرسة عجباً، ثم انبهارا، ثم حباً. . جلجلت ضحكتها مع تغريد العصافير، وقفت ثم مدت ذراعيها، وكما أدخلتها أعادتها إلى الخارج من فوق السور:

ــ تفضلي أيتها الآنسة الكبيرة، أدخلي من الباب مثلهم. .

للتو توقف بكاؤها وانقطعت دموعها. . رمقت زملاءها داخل الحديقة، ثم رنت أعلاها إلى المدرسة بابتسامة ثقة، ثم تقدمت بخطوات أكبر منها، تحاول دفع الباب بيديها الرقيقتين. . في البداية وجدته ثقيلاً، ثم بدأ يتحرك في سهولة ويسرا!. . رفعت نظرها فلمحت يد المدرسة تساعدها في دفعه من أعلى. . للفور ارتدت إلى أرض الرصيف، وعادت تصرخ من جديد:

ــ وحدي، مثلهم. . وحدي، ليسوا أحسن مني!

تراجعت المدرسة تماماً:

ــ تفضلي مثلهم، وحدك، تفضلي يا آنسة!

أخذت شهيقاً عميقاً. . ثم تقدمت ثانية، تحاول لوحدها، عاكسها الباب، حركته ثقيلة، لكنه يتحرك، بطيئاً لكنه يستجيب لقوتها، تأكدت من أن أحداً لا يساعدها، وعادت تدفع، أحمر وجهها وهي تجاهد وتضغط، وتضاعف من جهدها. . شيئاً فشيئاً دار الباب وحققت النصف دورة، ودخلت الحديقة. . جمدت برهة غير مصدقة، ثم التفتت بغتة خلفها، تأكدت من ابتعاد المدرسة تماماً عن

العملية، فارتاحت واشرقت ملامحها، وشدت قامتها، لتجول بعينيها زهواً، تتأمل تأثير ما فعلته على وجوه أقرانها الأكبر عمراً . .

في أعقابها دخلت المدرسة، ليتجمع من حولها الكتاكيت الصغار بملابسهم الخضراء، متواثبين هاتفين برغباتهم :

ـ الفيل أبو زلومة، نذهب إلى الفيل أولاً . .

ألح طفل طويل :

ـ القرود، إلى جبلاية القرود

صاحت طفلة سمينة :

ـ الزرافة، الزرافة . .

غردت ثلاث أصوات :

ـ الغزال، الغزال

حاولت المدرسة إسكاتهم، لكنهم ظلوا يتصايحون :

ـ الفيل . . الثعلب . . النعامة . . التمساح . .

نهرتهم المدرسة في حسم :

ـ سكوت، سكوت . . تزعجون الحيوانات بصخبكم هذا، وسوف يختبئون ولا ترونهم أبداً!!

صمتوا جميعاً . . وبحركة غير مقصودة اتجهت نظراتها إلى البنت الصغرى، التي انتهزت الفرصة، لتهتز ضفيرتها حماساً، وهي تعلو بصوتها فوق صمت الجميع :

ـ نذهب إلى الأسد . . الأسد، الأسد، الأسد!

طرح . . جمع . .

في المساء كان العشاء لاثنين فقط، ونام «صلاح» قبل أن يعود والده . . وفي الصباح جرى إلى سريره فوجده شاغراً، وأجابت أمه في اقتضاب :

ـ خرج منذ قليل!

دهش، وكان لديه سؤال آخر . . لكنها دفعته إلى الحمام ليغتسل . إلى المائدة ليأكل . إلى غرفته ليلبس . . وضعت حقيبته في يده، ثم سارت به صوب المدرسة . . في محاذاة البناية التي بها عمل والده، لاحظ شرودها وتغضن وجهها، سألها أن كان بالداخل، فأجابت «نعم» ولم تزد، وبقيت صامتة حتى ودعته عند باب المدرسة متجهة إلى عملها ! ! . . وقف برهة محتاراً يرمقها وهى تبتعد . ثم استدار إلى أرض الفناء، وسرعان ما نسي قلقه واندمج مع أقرانه، وراح يلعب . .

لكن القلق عاوده بعد الدراسة، عندما جاءت لتأخذه . . وجدها تمشي إلى جواره صامتة بشرود الصباح، باردة الأنامل، لا تسأله عن

يومه الدراسي، ولا درجته في الحساب، وها هي تكـاد تخطىء وتهم بعبور الطريق واشارة المرور مفتوحة للسيارات، وهي التي تشدد عليه كـل يوم بعـدم التحرك إلا مـع إشارة المشـاة الخضـراء وبعـد تـوقف العربات تماماً!! . . لهذا لزم مكـانه فـوق الرصيف، جـاذباً كفهـا في عنـاء، مشيراً في زهـو إلى إشارة المشـاة الحمراء! . . أعـطتـه بـسمـة سريعة راضية فرح بهـا، وكان لـديه خبـر سار هم بـأن يعلنه لـولا أن الإشـارة سمحت لهمـا بـالعبـور، فـراح يتسلى بقـراءة لافتـات المحلات . .

*المسألة :

في البيت تناول غداءه سريعاً، وانتهى من المذاكرة، ووالـده لم يعـد! . . يبحث عن أمه، وجـدها مستلقيـة على السريـر محملقة إلى السقف مغمومة :

ــ لماذا لم يعد أبي؟؟

ــ عنده عمل

ــ متى يعود؟؟

ــ بالليل

ثم أسدلت جفونها تنهي الحوار، فلم يخبرها بنبئه السار، وتوجه إلى الشقـة المجاورة ليلعب مـع صديقتـه «سماد» . . فـوجىء بـأمهـا تحتضنه مقبلة في عطف زائد :

ـــ مسكين يا حبيبي!!

نظر محتاراً، لماذا مسكين؟؟.. صاح في فوز:

ـــ نلت اليوم الدرجة النهائية في واجب الحساب

ـــ شاطر، دائماً شاطر

ـــ وقالت المدرسة أمام الفصل كله أنني تلميذ ذكي..

ـــ طبعاً ياحبيبي!

لكنها إلتفتت إلى زوجها:

ـــ مسكين، يقع ما جرى وهو في هذا العمر!

نهرها الرجل:

ـــ أسكتي، لا تعكري صفوه، لم يعرف بعد!

اندهش صلاح، وجذبته «سعاد» فراح يلعب معها ونسي نفسه، غير أنه من حين لآخر كان يسمع حديث الزوجين الخافت، سمع أن أمه تشاجرت مع أبيه، أو ربما كان والده هو الذي تشاجر معها، لم يفهم بالضبط، ولم يجد في الأمر ما يزعج، فأحياناً ما يدب الخلاف بينهما ثم سرعان ما يزول.. لكنه سمع كلمة جديدة عليه: «الطلاق»!!.. وجم برهة ولم يدرك معناها تماماً، وكان اللعب مستحوذاً عليه، فعاد يندمج مع سعاد.

في المساء رجع إلى أمه التي أطعمته وأعدته للنوم، وبينما هو يدخل السرير عاد إلى سؤاله، نهرته بلهجة ضجرة:

ـ قلت لك في العمل

سكت، لكنه صمم ألا ينام إلا بعد عودته . . فأخذ يحملق إلى السقف، حريصاً على ألا يغمض عينيه . . لكن سرعان ما غافله خدر النوم متسللا إلى وعيه، فانسدلت جفونه، وهو يقاوم ويعاند إلى أن نام، وبينما هو نائم حلم بأن والده قد عاد وقبله قبلة المساء، واعدا اياه بعدم التأخير ثانية، مما جعله يبتسم وينام سعيداً!!

* الطرح :

أول شيء فعله في الصباح هو إسراعه إلى سرير والده، وجده خالياً وأمه بالصالة مهمومة. أسرع إلى الحمام ولما لم يسمع صوتاً بداخله استدار متسائلاً، قبل أن ينطق قالت تصده :

ـ خرج قبل أن تستيقظ

ثم هبت تطعمه وتلبسه لتتجه إلى المدرسة، وليفاجئها في الطريق متسائلاً :

ـ هل تشاجرت مع بابا؟؟

ـ أسكت

سكت عدة خطوات، وعندما جاور مكتب أبيه تذكر نبأه الكبير، فصاح يبلغها به، لكن ضجيج السيارات وشرودها منعاها من سماعه، فتشاغل بالطريق، و«بالاتوبيسات» المزدحمة، وبأقرانه المتوجهين مثله إلى مدارسهم . ، وقرب المدرسة سألها بغتة :

ـ ما معنى الطلاق؟؟

ـ معنى ماذا؟؟

ـ الطلاق

ـ لا أعرف، ادخل مدرستك وانتبه لدروسك

غير أنه بعد الحصة الأولى خرج وراء مدرسته :

ـ سؤال يا أبله، ما معنى كلمة طلاق؟؟

ـ يا حبيبي، لماذا تسأل؟!

ـ أريد أن أعرف

ـ كلمة سيئة

ـ أريد أن أعرف!

ـ معناها أن يترك الزوج زوجته

ـ وأين يذهب؟!

ـ بعيداً عنها، وربما تزوج من امرأة أخرى

ـ وابنهما؟؟ أين يذهب؟!

ـ إما أن يعيش مع الأم وإما أن يأخذه الأب

ـ بعيداً عن أمه

ـ نعم. . لماذا تسأل يا حبيبي؟! لماذا تسأل؟!

لم يرد، ووجد نفسه سائراً بخطو متخاذل إلى فصله. . جلس برهة مفكراً حائراً، ثم هب فجأة يلتقط حقيبته، مندفعاً إلى الفناء، متجهاً صوب باب المدرسة، ليغافل البواب خارجاً إلى الطريق!!

* الخطأ:

في مكتبه بالعمل فوجىء الأب بابنه داخلاً عليه!!.. نظر إلى ساعته صائحاً:

ـ كيف تركت مدرستك؟؟

لم يرد.. وخلف المكتب المواجه توقفت زميلة والده عن عملها هاتفة:

ـ صلاح ياحبيبي، تعال..

اتجه نحوها منكس الرأس.. أجلسته إلى جوارها وراحت تقبله وتسأله عن أمه، وهو دائم الرمق إلى أبيه، الذي صاح:

ـ طبعاً هي التي أرسلتك!!

هز رأسه نفياً..

ـ فلماذا تركت مدرستك؟!

ـ لأنك لم تحضر إلى البيت منذ يومين!!

هب الرجل غاضباً، مندفعاً نحوه مدارياً ربكته.. قبل أن يصل إليه وجد زميلته تقف في طريقه متنمرة:

ـ لو ابني لتحملت من أجله أي شيء!

تقهقر إلى مكتبه، ليتشاغل خجلاً بورقة أمامه، سرعان ما مزقها وقد اكتشف انه بدلاً من أن يجمع الأرقام أخطأ وطرحها!!

قال صلاح للموظفة، وهو يرنو بعينيه إلى والده:

ـــ نلت الدرجة النهائية في الحساب

قبلته المرأة، ولمح أباه يرمقه اعجاباً، فتشجع وتساءل بصوت مرعوش:

ـــ بابا، هل أنت زعلان من ماما؟؟

ـــ قل الحقيقة، هي التي أرسلتك.. أليس كذلك؟؟

ـــ بابا، تعرف أنني أكره الكذب

زاد ارتباك الأب، لم يتحمل نظرات زميلته الموبخة، نكس رأسه لحظات، وبعد تردد أغلق أدراجه ونهض، لتسارع كف صلاح الى التشبث بكفه!

* الجمع:

وضع «الجرسون» كأس «الآيس كريم» أمام صلاح، ورشف الأب قهوته السادة ثم قال:

ـــ اسمع ياحبيبي، أريد أن أحدثك في أمر خطير

ـــ ...... !

ـــ أنت ولد نبيه وأظن أنك ستفهمني جيداً

ـــ ...... !

ـــ عندما تكبر سوف تعرف أن الحياة صعبة، لا تمنح الانسان كل ما يريده

ـ هل ستترك ماما؟؟

ـ أسكت وحاول أن تفهم. . كثيراً ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. . آه. . لكن هذا الكلام كبير على سنك. . بصراحة أنا لم أعد قادراً على العيش مع أمك!!

ـ لكنها تحبك!!

ـ افهمني جيداً

ـ وهي حزينة وصار وجهها أصفر!

ـ اسمعني. . . . . .

ـ وكادت تخطىء وتعبر الطريق والاشارة مفتوحة للسيارات!!

أشاح الأب نافخاً، وعاد يرشف قهوته. . ثم لاحظ أن «الآيس كريم» كاد أن يذوب من دفء الجو، نبه ولده، الذي أخذ ملعقة ثم سأل:

ـ هل ستطلق ماما؟؟

ـ نعم

ـ وتعيش بعيداً عنها؟؟

ـ طبعاً

ـ وتتركني؟؟

ـ ستأتي معي

ـ وأترك ماما؟؟

ـ إما أنا وإما هي!

ـ أنت وهي

ـ أعوذ بالله . . قم بنا

وهو يدفع الحساب نظر إلى ساعته، سرقهما الوقت، والمفروض أن يكون صلاح في البيت منذ ساعتين، ولا بد أن أمه مرت عليه في موعد خروج المدرسة، ثم سألت عنه عند الجيران، والمؤكد أنها الآن في حالة يرثى لها، يعرفها جيداً، ابنها هو كل حياتها!!

كما توقع وجد باب الشقة مفتوحاً، والوجوم والكرب!! . . واندفعت الأم تحتضن ولدها باكية عاتبة . . ووقف هو مرتبكاً يفكر في الانصراف، وعندما علم أن جاره خرج يسأل عن صلاح في أقسام الشرطة زاد حرجه، وشهر أصبعه غاضباً:

ـ انظر نتيجة فعلتك يا ولد

لكن الولد لم يجفل ولم يهتز، شد طوله في حضن أمه وصاح:

ـ أنت السبب، أنت!

جمدت الجارة وابنتها سعاد . . لمعت عينا الأب، ورق صوت الولد يغريه ويرغبه:

ـ انظر إلى ماما، انظر، جميلة ولطيفة وشاطرة

ساد الصمت والترقب وسحبت الجارة ابنتها وانصرفت مغلقة باب الشقة في هدوء . . وعلى الفور ترك صلاح حضن أمه، واندفع يرتكز على الباب بظهره، يمنع والده من الخروج أن هو حاول . .

منحته أمه ابتسامة مشجعة، ثم رنت في ود ملهوف ترقب رجلها، الذي وقف محتاراً، يدعك ذقنه بأصابعه، ناقلاً نظراته بينها وبين ابنهما!!.. تقدم خطوة صوب الباب.. تحفز صلاح فارداً ذراعيه مستعداً للمقاومة!!

شعر الأب أن يده أضعف من أن تجذب هذا الولد عنوة، فراح يهز رأسه عجباً، ثم تنهد، وبعد تردد امتدت أصابعه تفك أزرار قميصه، ليقفز صلاح هاتفاً مصفقاً، ولتهب الأم سعيدة بعينين مغرورقتين إلى المطبخ، تعد طعام الغذاء لثلاثة أفراد.

نائمة وتبتسم في عذوبة ساحرة!! . . بماذا تحلم وقد حان موعد صحيانها؟! . . توقفت الأم عن إيقاظ وحيدتها، لم يطاوعها قلبها فتركتها نائمة، وهرولت إلى المطبخ، عندما شعرت بزوجها يخرج من الحمام علت بصوتها:

ــ أيقظ البنت

عبر الصالة الصغيرة وهو يجفف رأسه، دخل غرفة النوم، ألقى بالفوطة وعيناه على طفلته، انتعشت نظرته، لمح بسمة حلمها، ابتسم في يقين: تأكل أرزاً باللبن مع الملائكة! . . وتركها نائمة . .

أعدت زوجته سندويش الجبنة البيضاء، وضعته داخل كيس نايلون صغير مع بعض شرائح اللفت المخلل، وضعت كل هذا فوق ترابيزة الصالة، صاحت:

ــ غداؤك على التربيزة

عادت إلى المطبخ تعد أكل الطفلة، بعض البطاطس وشرائح

رقيقة من الكبدة داخل كيس آخر نظيف، وضعته إلى جوار السابق وهي تهتف:

ــ هل أيقظتها؟؟

ربط حزام البنطلون، لن يوقظها قبل أن تتم طبقها من الأرز باللبن مع الملائكة.. أطلت عاتبة آمرة:

ــ تأخرنا، أيقظها فوراً

ــ لم تشبع نوما

ــ أنت السبب في سهرها كل ليلة!

ــ فرصتي الوحيدة....

كانت قد اختفت فأكمل بصوت عال:

ــ فرصتي الوحيدة للتحدث معها، ماذا أفعل؟!.. هل أتركها تشب غريبة عني؟!

تململت الطفلة فسكت ومال يبحث عن حذاءيه، لا يعود إلاّ ليلاً في الثامنة منهمكاً معفراً، بعد الحمام والعشاء يكون في التاسعة، راحته الوحيدة في مداعبتها، لا يريد أن تكون علاقته بها مجرد إيقاظها من نومها الدافىء، لا يشبع من شهدها، وبمجرد أن تتثاءب ويغلبها النعاس يضعها في السرير، وعلى الفور تقب متاعب اليوم كله فيروح في النوم وهو أمام التلفيزيون، وفوق السرير يرتمي مثل القتيل، لم يتركه الارهاق يشاهد تمثيلية حتى نهايتها مهما كانت مسلية!!

لمح زوجته عند الباب مستاءة، اتجه صامتاً إلى سرير الطفلة، هزها في رفق، نظرت إليه من بين نعاسها، ابتسمت ثم تقلبت تكمل النوم، عاد يهزها:

ــ حبيبتي اصحي، عصافير الأشجار صحت منذ ساعتين..

تذكر أنه لا توجد أشجار قريبة في حيهم فقال:

ــ عصافير الأشجار البعيدة، وهي الآن تزقزق طائرة في الهواء

رمقتها الزوجة في المرآة، لمت شعرها واستدارت تكمل لبسها، خبطت قدمها بالكرة البلاستيك على الأرض، تحركت الكرة لتصطدم بقدمه وهو يحمل البنت من إبطيها ليجلسها، استلقت تواصل النوم، أجلسها من جديد، مالت تنام في حضنه، ضمها في رفق:

ــ كفاية نوم، كفاية كسل

دعكت عينيها، بشّ لها ثم نظر إلى زوجته في المرآة:

ــ ننتهي من أقساط التلفزيون وندخلها دار حضانة قريبة..

استنكرت:

ــ دار حضانة؟!.. ماله بيت بابا، ما عيبه؟؟

ثم تقدمت في حزم تأخذ الطفلة من فوق السرير لتوقفها على الأرض.. قال:

ــ على الأقل تجد أطفالاً من عمرها تلعب معهم ومراجيحاً ولعباً وكورا.

إبتسمت له الطفلة، قالت زوجته في حسم:

ـــ ما زال البيت تنقصه أشياء كثيرة!!

ثم سارعت تأخذ البنت نحو الصالة:

ـــ هيا يا حبيبتي أغسل لك وجهك وأمشط شعرك، وفي الطريق يسألني كل من يراك: من هذه الحلوة؟؟.. أقول له: انها ابنتي محبوبتي التي تسمع كلام أمها وجدها وجدتها.

أنزل البلوفر من حول رأسه: وأنا لا ذكر لي!!.. ثم بدأ يصفف شعره: وكل ليلة عندما تدخل السرير تظل تتقلب حتى تقلقني لتحكي لي باقي أحداث التمثيلية وبالتفصيل!!.

قاومت الطفلة غسل وجهها، ونكشت شعرها تفسد تسريحته، وعندما زررت أمها الجاكت الأبيض سارعت بفكه، وعاندت في الخروج من باب الشقة فضربتها، وقاومت باكية عند باب البيت، ثم رضخت سائرة مرفوعة اليدين بين كفي أمها وأبيها، شعرت بالدم ينحسر من ساعديها، حاولت التملص من الأم فلما فشلت جربت مع الأب الذي آلمه ضيقها فأفلت كفها، فانزلت يدها وراحت تفردها وتثنيها عدة مرات، والطريق من خلفهم ينتهي إلى الخلاء، وهواء الصباح البارد يُدمع عينيها، فحكت أنفها تدفئه بظهر كفها الطليق..

ساروا من شارع إلى آخر وسط المساكن الشعبية القديمة المتشابهة، تجنبوا بدراية وألفة أكثر من حفرة وأكثر من كومة تراب، حتى خرجوا إلى الشارع العمومي النظيف، ووقفوا عند محطة الأتوبيس.. نقل الأب السندويتش من يده اليمنى إلى اليسرى تأهبا

لقفزة الركوب. أتوبيسه الأول لم يلح بعد. والثاني يستقله من ميدان التحرير... رمى ببصره إلى الخلاء عند حافة الحي ثم عاد إلى طفلته يلاطفها، لكنه سمع زمجرة محرك تقترب، تقدم من حافة الرصيف، وفي اللحظات، التي أبطأ فيها الأتوبيس تمكن من القفز إلى سلمه متشبثاً بقبضته اليمنى، وعندما تمكن من الدخول اقترب من الزجاج الخلفي وراح يلوح...

ظلت البنت جامدة لامعة العينين تحملق إلى الأتوبيس المبتعد بين الغبار والدخان والضجيج، وغيوم السماء تنعكس على زجاجة الخلفي، فرأت وجه أبيها وكفه الملوحة في بياض شاحب شفاف، وكأنه يلوح لها من بين السحب!. اتسعت عيناها دهشة.. حثتها أمها على التلويح ففعلت وهي ما زالت مندهشة، وتمنت لو لوحت من بين السحب مثله!.

سحبتها أمها عابرة إلى وسط الطريق حيث نهاية خط المترو، اختارت مقعداً يطل على رصيف المحطة، أغلقت زجاج النافذة وأجلستها إلى جوارها وأخرجت السندويتش، أشاحت البنت هاربة ببصرها عبر الزجاج، مع تحرك المترو واهتزازه وانشغالها بمشاهدة البيوت وتحت الحاح أمها أمسكت بالسندويتش وقضمت قضمة راحت تمضغها في غير شهية، مع وقوف المترو وشرود أمها وجلوس راكبين على المقعد المقابل تركت السندويتش وانهمكت تراقبهما، داعبها الأول فمالت تلتصق بأمها في خجل..

ثلاثة محطات أخرى وازدحمت العربة، في المحطة الرابعة اكتظ الممر بالواقفين، تحول تنفسهم إلى بخار ماء تكثف على زجاج النوافذ، أجلستها الأم على ركبتيها مفسحة مكانا لأحدى الواقفات شعرت بالدفء فغاصت بظهرها في صدر أمها التي أحتوتها بساعديها، ابتسمت هانئة وعادت تنظر إلى الراكب أمامها، وجدته شارداً عنها وقد تغضن وجهه، نظرت إلى جاره فوجدته يتثاءب، وعندما عاد إلى التثاؤب تثاءبت، ثم سمعت أمها تسألها:

ـ حبيبتي، بماذا كنت تحلمين هذا الصباح؟؟

ترددت محتارة:

ـ لا أذكر

ثم شدها بخار الماء على زجاج النافذة، مدت أصبعها تخط عليه، منعتها أمها وأمرتها بإكمال السندويتش فتظاهرت بالأكل ثم قالت:

ـ ماما

ـ روح ماما

ـ لا تتركيني اليوم

ـ أكملي سندويتشك

ـ خذيني معك

ـ أسكتي

سكتت، وبعد عدة محطات ركبتها العصبية وهي تراقب

المناظر: الكوبري الحديدي، البيت الأصفر وفي أعلاه أكبر إيريال تليفزيون شاهدته في حياتها، الشجرة العالية المورقة التي بها عش العصافير، ثم الشجرة الجرداء التي ليس بها عش عصافير، وعندما يقف المترو في المحطة التالية سيأخذها جدها، وهي لا تريد!

ازدادت عصبية وأمها تعيد السندويتش إلى الكيس النايلون ثم توقفها وتنزل الزجاج وتطل على الرصيف وتنادي مع وقوف المترو:

ــ بابا، بابا، أنا هنا. . . هنا

صرخت ابنتها:

ــ لا أريد، لا أريد

على قدر جهده سارع العجوز الطويل صوب النافذة، أمسكت الأم بالطفلة، رفعتها فتشبثت بعنقها، رمقتها المرأة المجاورة مشفقة، دفعتها الأم عبر النافذة، أمسكها العجوز، صار جسدها بالخارج وساعديها حول عنق أمها، بكت، خلصت الأم عنقها، صارت الطفلة في حضن الجد، أطاحت بجسدها ناحية النافذة، ارتاعت الأم وقد كاد الرجل يقع لولا الشاب الذي سنده ثم هرول يقفز راكباً. . . قالت الأم وهي تناوله الكيس:

ــ لم تكمل فطارها، قل لماما ذلك لتطعمها، من فضلك يا بابا لا تنس .

تحرك المترو، لوحت لطفلتها والهواء يطاير شعرها:

ـــ انتظريني بعد الغداء ويا حبيبتي واسمعي كلام جدتـك من غير شقاوة!!

أشـاحت البنت في سخط عكس الاتجاه، بعـد أن أنزلهـا الجـد التفتت مهزومة تتابع ابتعاد المترو بعينين دامعتين!

* * *

جذبها الجد فسارت مستسلمة مرفوعة اليد بكفها في كفه، لتجد نفسها مختنقة من حصار السيقان المنصرفة، ثم منـزعجة من عـربات الطريق العريض الـذي عبراه بصعـوبة إلى شـارع جانبي، إلى منـزل قـديم في حمرة بـالية. . سلمهـا إلى زوجته ثم استـدار منصرفاً إلى المقهى، أوصته أن يمر أولاً على الجمعية الاستهلاكيـة عله يجد بهـا أرزاً، ولم تسـأله إن كانت بطاقة التموين معه لأنها تعـرف أنه يحملهـا دائماً!!

جلسـت الطفلة على المقعد الخيزران، لـم تجد ما تفعله، مصّت أصبعها، بعد بـرهة حملقت في جـدتها، بعـد برهـة أخرى هبـطت، دخلت غرفة النوم، زحفت تحت السرير النحاسي . عثرت على الكرة حيث خبأتها في اليوم السابق، عادت إلى الصالة، رمتها إلى العجوز الجالسة فوق الكنبة البلدي، سقطت في حجرها، أمسكتها ودحرجتها إلى الأرض بيـد مرتعشـة، تعجبت الطفلة لأن جـدتها لا تحب القـاء الكـرة عـاليـاً!! . . دارت حـول نفسهـا، تـطلعت إلى سـاعـة

الحائط الكبيرة، تعرف جيداً أين يكونا العقربان عند موعد الانصراف، نكست رأسها ثم رفعتها، اتجهت إلى باب الشقة، مدت يدها تفتحه، التفتت إلى الجدة، حذرتها ناهرة، عادت تمص أصبعها!!.. تذكرت دميتها القديمة عند ركن الصالة، اتجهت نحوها، جلست على الأرض، وضعتها في حجرها، مالت تسألها:

ـ زعلانة؟!

احتضنتها في حنو:

ـ هيا أغسل لك وجهك وأمشط شعرك، وآخذك إلى الحديقة وإلى الملاهي التي ترينها في التليفزيون، ويسألني الناس: من هذه البنت الحلوة التي تركب الأرجوحة فأقول....

توقفت بغتة ولم تكمل، ثم لطمت الدمية محذرة:

ـ اسكتي، قلت اسكتي وإلاَّ أخذتك إلى جدتك وتركتك معها!!

هبت واقفة متنمرة، ألقت بها أرضاً ثم وطأتها بقدمها الصغيرة!!.. تأملتها الجدة برهة ثم أشارت لها في حنان، تقدمت تلتصق بها، مالت تدفن وجهها في حجرها، ربتت العجوز على ظهرها، استكانت ورفعت أصبعها تمص فيه.. بعد أقل من الدقيقة رفعت وجهها إلى أعلى، رأت التجاعيد تغطي الوجه النحيف، اتسعت عيناها عجباً، أنزلت أصبعها مبهورة وكأنها ترى التجاعيد لأول مرة!

دقت الساعة فالتفتت، العقربان ليسا في موعد الانصراف، تضاعف مللها، فشلت في ابتكار لعبة جديدة تملأ بها الوقت، صعدت إلى الكنبة، تمددت تسند رأسها على ساق جدتها وسرعان ما غفت وحلمت بحديقة بديعة وأطفال يلعبون معها، ولعبت وضحكت حتى رأت جدها يأتي ليأخذها فبكت وقاومت وملأت الدموع عينيها وتشبثت في عنق أمها!

في موعد الغداء جاء الجد بكيس فيه بعض الخاجات والخبز الطازج، نهضت زوجته تعد المائدة فاستيقظت الطفلة.. لم يعجبها الطعام، مسلوق وأرز غارق في الحساء، أخرجت السندويتش، عندما لاحظت أن التجاعيد تغطي وجه الجد أيضاً تعجبت من جديد وتباطأ مضغها!.

أخيراً حانت لحظة الأنصراف، رفعت يدها في حماس تتشبث بكف جدها، تسبقه بخطوة من خطواتها إلى الشارع، ناوراسيارات الأجرة والملاكي والأتوبيس حتى عبرا الطريق إلى المحطة، سمعت سائقاً يصف جدها بأنه حمار!.. وقفا بين الزحام في انتظار الأم.. وصل أحد قطارات المترو، تدافع الناس راكبين، جذبها العجوز لاهثا من عربة لأخرى منادياً على ابنته، لم يعثر عليها وتحرك القطار وابتعد فوقف يلتقط أنفاسه ويجفف عرقه البارد.. عندما جاء مترو جديد كرر نفس المحاولة، أصابه الأعياء ولم تكن الأم موجودة.. مع المترو الثالث شعر بنبض قلبه يبطيء، أحست الحفيدة برعشته وبقبضته

تضعف فأفلتت كفها ورأته يتقهقر إلى أقرب مقعد خال، وبينما هو في أعيائه وصل مترو آخر، هب واقفاً بغتة، صعدت الدماء إلى نافوخه وارتجفت ساقاه فجلس زائغ العينين، جذبته للبحث عن أمها، قبل أن يقوم كان المترو قد تحرك، خشي أن يكون قد ابتعد بالأم فضاعف القلق من انهاكه، إنه لا يقدر على توصيل البنت إلى بيت والديها عند أطراف المدينة!!

* * *

على مدى البصر لاح قطار جديد، وبه الأم واقفة تفكر في كيفية التقاط ابنتها من بين هذا الزحام الفظيع!!.. تنبهت إلى شاب يلتصق بها بشكل مريب، ملأها القرف وكادت أن تسبه لولا رؤيتها لمحطة الجد تقترب، تذكرت صاحب السيارة الذي وقف يغازلها وهي خارجة من عملها، جاهدت في التوجه ناحية الباب فلما فشلت جاهدت تفسح طريقاً نحو أقرب نافذة، احتكت بأكثر من ركبة، وعندما مدت يدها تفتح الزجاج اعترض الجالس لبرودة الجو، استأذنته في نصف دقيقة فقط، ثم أخرجت رأسها تطل، لمحت والدها جالساً فنادته بأعلى صوتها عدة مرات والمترو يبطىء ليقف بعربتها بعيداً عنه.. سمعتها الطفلة فنبهت جدها فرحة، تحامل واقفاً، لم تساعده قواه على الأسراع، جاهد يقترب والطفلة تستحثه وأمها تناديه، زادت عصبيتها وهي ترى أنه ما زال بعيداً، سمعت الأبواب تغلق فصرخت تنبه السائق، بدأ المترو يتحرك، صرخت

الطفلة، أسرع الجد إلى أقرب نافذة مفتوحة، طلب من أحد الراكبين أن يلتقط الطفلة، أخذها منه مرتبكاً، خبطت رأسها في الحافة، بكت متألمة، احتار الراكب، أخذتها منه السيدة الممتلئة الجالسة أمامه.. بينما صاح الجد لابنته مشيراً إلى النافذة:

ـ أخذوها هنا.. أخذوها هنا.

تراجعت الأم ملتاعة، بدأت تشق طريقها ناحية وحيدتها، زاحمت الركاب، انحشرت واندفعت وجاهدت رامية ببصرها صوب مكانها.. بينما راحت السيدة الممتلئة تهدهد الطفلة وتداعبها وتدلك لها مكان الخبطة، فلما كفت عن البكاء أجلستها على ساقيها ومسحت دموعها، رأتها جميلة فهمست:

ـ يا لجمالك!!

تأملت البنت وجهها الوديع، اطمأنت إليها، فلما تغزلت في جمالها مرة أخرى ابتسمت ودفنت وجهها في الصدر الممتلىء، والمرأة تربت على ظهرها وتداعب شعرها وتلاغيها بعذب الكلام حتى استكانت تماماً فظننتها نامت..

بينما واصلت الأم كفاحها للوصول، لهثت وعرقت عرقاً بارداً حتى نجحت أخيراً ورأت طفلتها فاختفى انزعاجها ولانت ملامح وجهها.. سألتها السيدة:

ـ إبنتك؟؟

أومـأت بابتسـامـة مـرهقـة ثم نـادت على طفلتهـا، رفعت البنت وجههـا، نظرت إليهـا في غضب مكتومة ثم عادت تـدفن وجهها في الصدر الممتلىء!!.. كادت الـدموع تفـر من عيني الأم لكنها نـادت ثانية فقالت لها المرأة:

ـ دعيها تستريح

أومـأت شـاكـرة، ثم انهمكت في مسـح العـرق البـارد من فـوق جبينها وحول عنقها وفي محاولة استرداد هـدوء أعصابهـا، ثم شردت مفكرة في مشاكل العمل ومطالب البيت، أحست بالاختنـاق فحاولت أن تجد هواء نقياً عندما تنبهت على صوت المرأة تسألها:

ـ ألم تفطميها بعد؟!

تعجبت:

ـ فطمتها منذ أكثر من عام.. لماذا؟!

تتبعت إيماءة المرأة لترى طفلتها وأناملها الصغيـرة تحاول إيجـاد فتحة في ثوب الصدر في محاولة ليصل فمها إلى الثدي لترضع!!

.أغرورقت عيناها، احتارت قلقة فيما رأت.. ارتـج المترو فجـأة وكادت تنكفىء فرفعت يدها تتشبث، ارتج ثانية فضغطت في عصبيـة تزداد تشبثاً.

فهرس

صفحة

رقم الإيداع ٢٦٤٧ / ٨٦ الترقيم الدولي ٨ – ٠٥٨ – ١٤٨ – ٩٧٧

مطابع الشروق

كتب للمؤلف